كلية الآداب
قسم التاريخ

مكتبة جامعة القاهرة

المرأة في العراق خلال عهدي البويهيين والسلاجقة

٣٣٤-٥٩٠هـ/ ٩٤٥-١١٩٣م

رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير في الآداب

الجزء الأول - متن الرسالة

إعداد

الطالب / أحمد عبد المنعم أحمد عبد الرحيم العدوى

إشراف

الأستاذة الدكتورة / منى حسن أحمد محمود

أستاذ التاريخ الإسلامي - كلية الآداب / جامعة القاهرة

١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م

الفصل الثانى

دور المرأة فى الحياة الاجتماعية

(١) المَرأة والزَواج والأُسرة

يرى عُلماء الاجتماع أن المرأة هى نصف المُجتمع ، وهو رأى غير مُبالغ فيه بطبيعة الحال فإن المرأة تلعب دوراً لا يمكن أن يُوصف بالكبير فحسب بل هو دور رئيسى فى الحياة الاجتماعية الإنسانية ، ويعد الزَواج بنظمه وطقُوسه أحد أهم وأبرز مظاهر الحياة الاجتماعية على الإطلاق ومن ثم فهو ظاهرة اجتماعية ترتبط دائما بما ينظمها سواء على الصعيد الدينى أو الأخلاقى أو العُرفى ، وقد تختلف هذه الطقوس من مُجتمع إلى آخر ، بل وتتباين أيضا داخل المُجتمع الواحد نفسه بتأثير عوامل اختلاف الديانة والثقافة والعُرف الاجتماعى ، ومن الملاحظ أن خروج الفرد عن هذه النظم والطقُوس يعد أمراً مُوجبا للعقاب فى معظم الأحيان أو يعرض الفرد للنبذ من الجماعة على الأقل فى أحيان أخرى .

وكان من المُعتاد أن يتم التوصل إلى العرُوس المناسبة عن طريق وسائل شتى شاعت فى معظم المجتمعات الإسلامية فى العصور الوسطى ، منها اجتماع النسوة فى المناسبات الاجتماعية والحمَّامات العامة المُخصصة للنساء والزيارات المتبادلة ، حيث كانت تلك الزيارات وسيلة طيبة كى تَختَار الأُم العَروس المناسبة لولدها ، وإلى جانب ذلك كان هناك أيضا " الدَلاَّلات" وهن فئة من النساء كان عملهن التوفيق بين الرجال ممن يرغبون فى الزواج وبين العروس المُناسبة [١] وكانت الدلاَّلة تتقاضى أجراً على ذلك من الطرفين ، لكنه وفى كثير من الأحيان كان يمكن أن تقوم المرأة بنفسها باختيار الرجل المُناسب لها [٢] ونتج ذلك عن اختلاط النساء والرجال فى الشوارع والأسواق ، ويتحدث ابن الجوزى عن ظاهرة شيوع ذهاب النساء فى عصره إلى المُنَجمين والعَرَّافين والدجَّالين لعمل نُسخ المحبة لتُسحر للشخص الذى ترغب فى الزواج منه بحيث يقع فى هواها [٣] .

وكان يجب على الشاب بعد أن يقع اختياره على العَرُوس المُناسْبة أن تطلب أسرة الشاب من وَسيط وهو رجل من ذوى الهيبة والمكانة ليقوم بخطبة الفتاة من ذويها ، وكان ذلك

---

(١) ابن الجوزى : كتاب الأذكياء ، دار الكتب العلمية ، بيروت (١٩٨٥) ص٥٥ ؛ مجهول : النوادر الغريبة ، ص٢٧٤ ؛ **Edward .W. Laen : Arabian Society In The Midelle Ages , London (1837) p255**

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٢،ص٩ ؛ ابن الجوزى : صفوة الصفوة ، حيدر آباد الدكن (١٣٥٥هـ) جـ٢ ، ص٤٣١ .

(٣) ابن الجوزى : نقد العلم والعلماء المعروف بتلبيس إبليس ، دار الجيل ، بيروت (د.ت) ص٥٠٦ ، ويقول أيضا المؤلف المجهول صاحب كتاب النوادر الغريبة بأنه قد شاع أيضا بين الرجال الذهاب إلى السحرة والمنجمين لعمل الرقى والتعاويذ لجلب محبة النساء ، النوادر الغريبة جـ١،ص٥١ .

الوسيط يُدعى " السَفير " [١] حيث استعان ابن الجوزى برجل من الأعيان يدعى ابن المُهتدى ليسفر له عند الوزير يَحيى ابن هُبيرة ليخطب ابنة الوزير لولده أبى القاسم ، وتم هذا الزواج سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م [٢] .

وتلى الخِطبة اتفاق العائلتين المُتصاهرتين على شرُوط العَقد ، ويأتى فى مقدمة تلك الشروط الصدَاق الذى كان المَهْر الذى يدفعه الزوج لزوجته ، ومن الملاحظ أن التشريع الإسلامى أباح للرجل أن يدفع الصداق كله قبل الدخول بالزوجة أو يُعجل بعضه و يُؤجل بعضه ، وفى حالات كثيرة تأجيل معظم مبلغ الصداق الذى اختلف طبقا لدرجة يَسَار الزوج ووضعه الاجتماعى والطبقى ، وبصفة عامة يلحظ الباحث فى تاريخ العراق الاجتماعى ميل جميع الطبقات بلا استثناء إلى المبالغة فى مَبلغ الصداق بالنسبة لطاقة الزوج حيث عملت الكثير من الأُسر على مُضاعفة مبلغ الصداق فمن ناحية كى لا يكون الطلاق أمراً ميسوراً للزوج متى أراد ، ومن ناحية أخرى لأغراض المُباهاة والتفاخر ، ومن الملاحظ أن الزوج متى استكمل دفع الصداق المُؤخر كان ينبغى أن يحصل من زوجته على رقعة كان يطلق عليها اسم " البَراءة " وكان ينبغى أن يشهد على هذه البراءة عدد من الشهود ، وكان من الواجب أيضا إذا ما حدث الطلاق أن يحرص الزوجَ على الحصول على البراءة من مطلقته وعليها إشهاد الشهُود تفيد بأنها قَبضت المُتأخر من صداقها [٣] وكان عدم وجود البَراءة مع المُطلق يعنى أن مُطلقَته يمكن أن تتقدم إلى القاضى ومعها كتابها لتطالب بحقها فى مؤخر صداقها ، وفى كثير من الأحيان كان الأمر ينتهى ببيع مُمتلكات الزوج أو حبسه حتى يستطيع أداء الصداق الذى كتبه على نفسه [٤] .

لذلك كان الأزواج يعدون الصداق المُؤخر قيداً عليهم فكان باستطاعة الزوجة فى أى وقت أن تُطالب زوجها بما أخره من صداقها ونتيجة لذلك سادت بعض الأمراض الاجتماعية

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ،جـ١٢،ص٧٩ ؛ وانظر أيضا نص سفارة بغرض خطبة فتاة بالملاحق ، الملحق الوثائقى ، ملحق ٣/٥ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ١٠ ، ص ٢٥٧ .

(٣) ابن الجوزى : صَفوة الصفوة ، جـ٢، ص٢٩٩ ، وعن طريق هذه البراءة كانت تحتسب مدة العدة بدقة إذا ما أرادت المطلقة الزواج مرة أخرى ، وفى إحدى الحوداث عام ٥٧٣هـ/١١٧٧م عزل أحد القضاة بسبب إكراهه زوجا على تطليق زوجته ، وإجباره على التوقيع على براءة مُزورة بتاريخ متأخر ليتسنى لها الزواج من شخص آخر – كان قد دفع رشوة للقاضى– دون انتظار لشهور العدة ، ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠، ص٢٦٩ .

(٤) مجهول : دقائق الحلل ، تحقيق رينيه خوام ، نازاك سابايارد ، دار الساقى ، بيروت (١٩٩٢) ص٢٠٣ ؛ ابن أبى الدم الشافعى : أدب القضاء ، تحقيق هلال ناجى سرحان ، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الدينية ، بغداد (١٩٨٤) جـ٢، ص٣٣٨ .

كتزوير الأزواج للبَراءات عن طريق إشهاد الشهُود المُتواطئين مع الزوج على براءة وهمية من الزوجة لزوجها ، أو استغلال الزوج لجهل زوجته بالقراءة والكتابة للحصول على خِتمها على البَراءة وهو ما كان يضع القضاة فى موقف حرج بإصرار الزوجة التى تُقسم اليمين على أنها لم تُبرئ زوجها من باقى صداقها ، مُقارنة بالزوج الذى كان يقدم البَيِّنة وهى بَراءة من زوجته مُسجل عليها توقيع الشهُود ، ويبدو أن هذه الظاهرة استفحلت بشدة حتى أن السُلطان مَلكشَاه اضطر إلى إصدار مرسوم وهو المرسُوم الذى عُرف باسم " القواعد الشرعية فى المسائل المَلكشَاهية " [١] مُحاولاً فيه الحَدّ من ظاهرة تزوير الأزواج لبَراءات الصداق ، حيث أمر السُلطان بأن تُسجل كل امرأة حصلت على صداقها المُؤخر براءتها لزوجها فى مجلس الحكم (أى مجلس القضاء) وأن تُشْهد عليها القاضى بنفسها وفى حضور زوجها والشهود الذين شهدوا على البراءة ، وهى عملية أشبه بتسجيل الأوراق الرسمية فى عَصرنا هذا ، وفيما عدا ذلك فإنه لا يتم قبول أى براءة يُقدمها الزوج ليس لها أصل فى سجلات مجلس الحكم إلا إذا اعترفت الزوجة أمام القاضى بصحة البَراءة المَنسوبة إليها [٢] .

ويبدو أن إصلاحات السُلطان ملكشاه للقضاء فى هذا الشأن حققت حماية كاملة للزوجات من تزوير الأزواج للبراءات فإن ابن الجوزى يتحدث عن ظاهرة شاعت فى عصره وهو إكراه الأزواج لزوجاتهم على إسقاط عن باقى الصداق المُؤخر بالضرب وسوء المعاملة ونلاحظ أن هذه الظاهرة وتحريم الإسلام لها كان موضوعا مكرراً فى مجالس الوعظ التى كان يعقدها ابن الجوزى [٣] ، وهو الأمر الذى يُصور مدى شيوعها لا سيما بعد أن تضاءلت ظاهرة تزوير البراءات بفضل مرسوم السُلطان ملكشاه .

ولما كان من الطبيعى أن يختلف مبلغ الصداق طبقاً للمُستوى الاجتماعى والطَبقى فبالنسبة للطبقة العُليا من الخُلفاء والسلاطين والأمراء فإنه من الملاحظ أنه رُوعى المُبالغة الشديدة فى

---

[١] تضمن مرسوم السلطان ملكشاه تنظيم عدد من أعمال الإصلاح القضائى الخاصة فى أمور البيع والشراء وتشريعات الأحوال الشخصية وهو مرسُوم فريد ، وقد عثر عليه لأول مرة الأستاذ كارل سُوسهايم مكتوبا باللغة العربية داخل أحد مخطوطات كتاب اليَزدى العَراضة فى الحكاية السُلجوقية المُدون باللغة الفارسية والمحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى ، حيث أدى لنا الناسخ الفَارسى لذلك الكتاب خدمة جليلة بإثباته لنص ذلك المرسوم الفريد وقد نشره الأستاذ سوسهايم كاملا مع كتاب اليزدى المذكور أعلاه فى ليدن عام (١٩٢١) ، وقد أثبتناه بنصه فى الملاحق ، الملحق الوثائقى ٩/٣ .

[٢] القواعد الشرعية فى المسائل الملكشاهية ، ضمن كتاب العراضة فى الحكاية السلجوقية ، ص٧٠ .

[٣] تلبيس إبليس ، ص٥٠٤ .

مبالغ الصداق عند زواجهم ، وكان مبلغ الصداق المُستحق يبلغ عادة مائة ألف دينار وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك العصر ، إذ يكفى للتدليل على ضخامته أننا لم نسمع طوال العصر العبَّاسى عن صداق فاقَ ذلك الصداق بدينار واحد ، وهو ما يشير إلى أن دفعه كان يمثل عبئا ثقيلاً على خزانة الخُلفاء والسَلاطين .

حيث تزوج من الخلفاء على هذا الصداق الخليفة الطائع بابنة عز الدولة بُختيار ، ثم بابنة عَضد الدولة [١] ، وتزوج القادر بالله ابنة بهاء الدولة على الصداق نفسه [٣] ، وتزوج القائم بخَديجة خاتون على الصداق نفسه [٣] ، بينما تعذر دفع هذا المبلغ على الخليفة المُقتدى فى صداقه لابنة ملكشاه فعجَّل لها أربعين ألف دينار وأخر باقى الصداق ورَضى السُلطان ملكشاه بذلك [٤] ، وتزوج الخليفة المُستظهر بعصمت خاتون على نفس الصداق [٥] ، كذلك تزوج المُقتفى بفَاطِمة خاتون على الصداق نفسه [٦] .

أما صداق الطبقة الوسطى والتى كانت تتألف فى أكثرها من أعيان التجَّار والإقطاعيين والعُلماء والفُقهاء والقضاة ، حيث دلتنا المصادر على حالتين فقط أولهما عقد إملاَك الفقيه الشافعى أبى يُوسف الدمشقى عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م على ابنة القاضى أبى جَعفر عبد الواحد ، وكان مبلغ الصداق سُبعمائة دينار [٧] ، وعقد إملاك الفَقيه أبى العبَّاس أحمد بن علىِّ الرِفاعى على زوجته بصداق بلغ خُمسمائة دينار [٨] ، ومن ثم يصح القول بأن الصداق المتعارف عليه لدى هذه الطبقة كان بضع مئات من الدنانير .

أما صداق الطبقات الدُنيا والتى كانت تضم صغار الحرفيين والصناع والمزارعين فإن صداق المرأة كان غالباً دُون الخَمسين ديناراً ، ومثال على ذلك فإن زوجة أحد الرَوزجارية

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٧،ص٧٦ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت (د.ت) جـ٣،ص٤٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ، جـ٤،ص١٢٩ ؛ مسكويه : تجارب الأمم ، جـ٢،ص٤١٤ .

(٢) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ، ص٢٥٤ .

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١٣،ص١٩٨ .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩،ص٢ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٥،ص ٢٨٩ .

(٦) مرآة الزمان -المطبوع- جـ٨،ق١،ص١٧٣ .

(٧) ابن الجوزى : المصدر نفسه ،جـ١٠،ص١٠٨ .

(٨) ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان -المطبوع- جـ٨،ق١،ص٣٧٠ .

(الفرّاشين) رضيت إبراء زوجها من صداقها البالغ عشرين دينارا مقابل أن يقوم بتنظيف أحد المسَاجد يوميا دون أجر تقربا منها إلى الله وأشهدت الشهُود على رضا الزوج بذلك [١] .

وبالإضافة إلى الصداق تسللت بعض العادات التُركية لا سيما فى العصر السُلجوقى مثل دفع " حقّ الرضَاع " وهو مبلغ من المال كان يدفع لإرضاء الأُم من قِبَل الزَوج ويمثل ثمن إرضاع الأم لابنتها ، وهى عادة تُركية جلبها السلاجقة معهم إلى العراق ، وبالرغم من أنها عادة غير إسلامية إلا أننا نجد أنها انتشرت انتشاراً واسعاً بين مُختلف طبقات المجتمع فى العراق إبَّان العصر السُلجوقى ، حتى أن الخليفة المُقتدى اضطر لدفع خَمسين ألف دينار لتُركان خاتون عن حق الرضاع لتوافق على زواجه من ابنتها [٢] .

أما باقى شروط العقد فكانت غالبا ما تتضمن اشتراطات للزوجة على زوجها ألا يتزوج عليها وألا يتسرى بجارية [٣] وإلا فإنها تصبح طالق منه لمخالفته لشروط العقد [٤] فاشترطت مَاه ملك خاتون على الخليفة المُقتدى فى عقدها ألا يتسرى عليها الخليفة وألا يكون مبيته إلا فى دارها [٥] .

وبعد إتمام إعلان الخطبة يأتى يوم الإملاك [٦] وهو يوم كتابة العقد ، حيث كان ينبغى على أسرة العروس أن تستعد لاستقبال المدعوين ، حيث كان أهل العروس يستعدون بتجهيز الفناء خارج المنزل ورص المقاعد حيث مكان جلوس الرجال [٧] ويقول الخطيب البغدادى (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م) بأنه كان أيضا من المعتاد أن يتم استئجار طباخ ومغنية للأسر التى تستطيع الإنفاق على الولائم الخاصة التى تقام للمدعوين ، كما كان يتم استئجار بواب أيضا ليقوم بمنع المتطفلين من الدخول إلى العرس بحيث لا يدخل إلى العرس إلا من كان مدعوا [٨] ، كما يتحدث أبو الفرج الأصفهانى (ت٣٦٢هـ/١٠٣٨م) عن دكاكين فى الأسواق كانت تطبخ مختلف أنواع الأطعمة التى تصلح للولائم لمن يرغب فى شرائها فى الأعراس واشتهر ببغداد دكان رجل يدعى " يسار النسائى " كان يقوم بصنع الطعام وبيعه في الأعراس " فمن أراد التعريس وجد عنده طعاما معدا " [٩] .

---

(١) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ، جـ١، ص٢٩١ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ،جـ٩، ص٢ .

(٣) ابن الجوزى : صيد الخاطر ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، القاهرة (١٩٧٩) ص٢٠٩ .

(٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٣،ص١٧٨ ؛ ابن الجوزى : صفوة الصفوة ، جـ٢،ص٢٩٨ .

(٥) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩ ،ص٢ .

(٦) الخطيب البغدادى : المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة .

(٧) الخطيب البغدادى : كتاب التطفيل وحكايات المتطفلين ، مكتبة القدسى ، القاهرة (١٩٨٣) ص٤١ .

(٨) المصدر نفسه ، ص٥٤ .

(٩) الأغانى ، تحقيق عبد مهنا ، دار الكتب العلمية ، بيروت (١٩٨٢) جـ٤،ص٤٠٨ .

وكانت علية القَوم من الأعيان يفضلون الاحتفال بالإملاك بدار الخلافة نفسها ، حيث درج الخلفاء على تخصيص باب الحُجرة الشريف وهو أحد أبواب دار الخلافة للاحتفال بكتابة العقد والإملاك ولم يكن يسمح بدخوله والاحتفال به إلا لمن يُريد الخليفة تكريمه ، وكانت كتابة عقُود النكاح بهذا الباب مدعاة للتفاخر والتبرُك فى الوقت نفسه بكتابة العقد بدار الخلافة العباسية ، حيث تفاخر ابن الجوزى بأن عقدى إملاك ولده وابنته كُتبا بباب الحُجرة الشَريفة [1] .

وكان يجب أن يسبق كتابة العقد خُطبة كان يطلق عليها اسم " خُطبة النِكاح " وتدل النماذج التى وصلتنا من هذه الخُطب [2] على أنها كانت تبدأ بالبسملة ، وذكر فضائل الزواج وحض الشريعة الإسلامية عليه ، ثم شروط العقد والإشهاد على رضا الطرفين بذلك حيث كان من المُعتاد أن يقرأ من يخطب هذه الخُطبة على الحاضرين شروط العقد التى اتفق عليها الزوجان ويطلب من الزوج أن يُعلن موافقته على تلك الشروط على الحاضرين ، كما فعل ابن المُسلمة مع الخليفة القائم بقوله " فإن رأى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أن يُنعم بالقبول فَعل " فرد الخليفة " نعم قبلنا هذا النكاح بهذا الصداق " [3] .

وكان القاضى مُحمد بن عبد الرحمن بن قريعة هو الذى خطب خطبة النكاح فى إملاك الخليفة الطائع على ابنة عز الدولة بُختيار [4] كما قام القاضى التنوخى (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م) بخطبة النكاح فى إملاك الخليفة الطائع على ابنة عضد الدولة [5] وخطب رئيس الرؤساء ابن المُسلمة وزير الخليفة القائم خطبة النكاح فى إملاك الخليفة القائم على خديجة خاتون كما سلف القول [6] كما كان هو من خطب أيضاً خطبة نكاح طُغرلبك على ابنة الخليفة القائم [7] .

وكان يعقب عقد الإملاك الاستعداد لليلة العُرس ، وكان ذلك يقتضى تجهيز العروس ، وكان أهل العراق يطلقون على شِوار العرُوس اسم " الرَّحل " أو " الجِهَاز " [8] ، وكان الجهاز يختلف أيضا تبعا للطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الزوج أو الزوجة .

---

(١) المنتظم ، جـ١٠ ، ص٢٥٧ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان - المطبوع - جـ٨ ، ق١، ص٣٣١ .
(٢) انظر نماذج من هذه الخطب بالملاحق ، الملحق الوثائقى ، ملاحق ٣/٦ ، ٩/٣ .
(٣) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨،ص١٦٩ ؛ الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ١٣ ،ص٢٩٨ .
(٤) ابن الصابئ : رسوم دار الخلافة ،ص١٣٩ .
(٥) المصدر نفسه ، ص١٣٨ .
(٦) المصدر نفسه ، ص١٩٨ .
(٧) ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٨ .
(٨) عبد السلام الترمانينى : الزواج عند العرب فى الجاهلية والإسلام ، دراسة مقارنة ، ***عالم المعرفة*** ، عدد ٨٠ ، الكويت (١٩٨٤)، ص ٢٠٦ .

وبالنسبة للطبقة العليا فإنه قد يلاحظ ذلك الميل الشديد إلى المبالغة فى شكل وحجم الجهاز ، فتكون جهاز خديجة خاتون التى تزوجت الخليفة القائم من آلاف القطع من الجواهر ، وأوانى الذهب المُرصعة بالجوهر وآلاف من قطع الثياب المَنسوجة بحبَّات اللُؤلُؤ الكبار [١] كذلك كان جهاز ماه ملك خاتون التى تزوجها الخليفة المُقتدى دخل بغداد " مُحملاً على ظهر مائة وثلاثين جملاً وأربعة وسبعين بغلاً ، مُجَلّلة جميعاً بالديباج وكانت أكثر الأحمال الذهب والفضة ، وحملت ستة بغال اثنى عشر صندوقا من الفضة فيها من الجواهر والحلى ما لا يُقدَّر " [٢] ، كذلك كان جهاز فاطمة خاتون التى تزوجت من الخليفة المُقتفى مُحملاً على مائة واثنين وثلاثين جملاً ، وسبع وعشرين بَغْلاً مُحَملة بالجواهر والذهب وسائر الثياب " [٣]

أما بالنسبة للطبقة الوسطى فإن الجهاز كان يَجب أيضا أن يكون فخما نوعا ما ، ويتحدث ابن الجَوزى الذى كان من أعيان عَصره على أن الجهة بَنفشا حَظية الخليفة المُستضئ أصرَّت على تجهيز ابنته رَابعة [٤] على نفقتها ، وبرغم أن ابن الجوزى لا يذكر على وجه التحديد ما أنفقته بنفشا على جهاز ابنته إلا أنه يقر أنها تكلفت فى ذلك الشئ الكثير [٥] ، كذلك أنفقت زُمرد خاتون أُم الخليفة الناصر على زواج أحد كبار العُلماء فى عصرها وجهزت عروسه وأنفقت فى ذلك عَشرة آلاف دينار [٦] وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك العصر..

أما الطبقات الدنيا فلا تخبرنا المصادر المعاصرة بشئ ذى بال عن تكاليف الجهاز أو مُكوناته التى فى الغالب لم تكن تتجاوز بعض قطع الأثاث والفَرش والأوانى النحاسية والزُجاجية ، لكننا نعتقد أن الجهاز أيضا كان يمثل عبئاً ثقيلاً على كاهل كثير من الأسر ،

---

[١] ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص١٠٥ ؛ الصفدى : الوافى ، جـ١٣،ص١٩٨ ؛ مصطفى جواد : سيدات البلاط العباسى : ص١٠٢ .

[٢] النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ص٢٤٩ ؛ مارى بن سُليمان : أخبار بطَاركة كُرسى المشرق ، فصلة من كتاب المَجدل الكبير ، تحقيق ونشر هنريكوس جيسموندى ، روما (١٨٩٩) ص٢٣٢ ، إبراهيم حركات : المجتمع الإسلامى والسلطة فى العصر الوسيط ، الدار البيضاء (١٩٩٨) ص٥٦ ؛ الترمانينى : المرجع نفسه ، ص٢١٢ .

[٣] سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان – المطبوع- جـ٨،ق١،ص٣٤ ؛ ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص١٧٣ .

[٤] كانت رابعة ابنة ابن الجوزى هى التى تزوجت من ابن رشيد الطبرى فى خلافة المستضئ عام ٥٧١هـ/١١٧٥م ، ثم تزوجت بعد وفاته من رجل تُركى يدعى عبد الرحمن قزا أُوغلى الذى أنجبت منه ابنه يُوسف المعروف بسبط ابن الجوزى ، انظر :- مرآة الزمان – المطبوع – جـ٨،ق١،ص٣٣١ .

[٥] ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠،ص٢٦٢ .

[٦] ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٢ ،ص٣٩ .

وفى إحدى الحوادث يتحدث ابن الجَوزى عن أحد عمال مخزن الخليفة المُستظهر الذى اضطر أن يختلس عددا من جُبَبْ الخليفة ويبيعها بستمائة دينار ليُجهز بثمنها ابنته [١] ، وكان انتقال الرَّحل أو الجهاز إلى منزل الزوج له احتفال سابق على ليلة العُرس ، حيث كان الرَّحل يُحمل على ظهور الدواب وتسير وراءه الجمُوع وهم يُنشدون الأغَانى والأهازيج ابتهاجا بهذه المُناسبة .

أما ليلة العرس فكانت من الليالى البهيجة والمُحببة عند أهل بغداد لا سيما إذا ما تعلقت بالخُلفاء إذ أن أعراس الخلفاء كانت تحتوى على رسُوم ثابتة فى البلاط كان ينبغى مُراعاتها بدقة ، إذ كان من المُعتاد أن تُغلَق الأسواق نهاراً ويتم نصب السرادق فى طريق سير موكب عروس الخليفة ، ويتم توزيع الشمُوع الموكبية - وهى نوع من أنواع الشموع الكبيرة التى كانت تستخدم فى المواكب - على الأهالى بحيث تُضاء بغداد كلها ليلاً [٢] ويخرج العامة على اختلاف طبقاتهم لمشاهدة موكب مندُوب الخليفة الذى كان يخرج ليلاً لإحضار العرُوس على متن موكب كبير وحافل ، وكان مندوب الخليفة يدخل إلى أهل العروس ويوجه حديثه إلى والد العرُوس قائلا " سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول لكم " إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا " [٣] وقد أذن بنقل الوديعة (أى العرُوس) إلى داره العَزيزة " ، وكان ينبغى على والد العروس أن يرد على مندوب الخليفة بقوله " السَمع والطاعة للمرَاسم الشريفة " [٤] .

ثم يصطحب مندوب الخليفة العرُوس ويسمح بأن تسير معها سائر الخوَاتين والجَوارى والحاشية وهن فى أبهى صورهن يحملن الشموع الموكبيات وتسير كل واحدة منهن فى جماعتها [٥] وعندما يصل الموكب إلى دار الخلافة يصطحب مندوب الخليفة العروس ويستأذن فى الدخول بها إلى مجلس الخليفة ، وحين يُؤذن له ، كان ينبغى عندما يدخل أن يُقبِّل الأرض بين يدى الخليفة ثم يقول " إن الخَادم فُلان قد امتثل المراسم العالية فى حمل الوديعة ، ويسأل فيها كريم الملاحظة واجتناب الضَيعة " فيشير له الخليفة بالرضَا ، ويشير إلى العرُوس بأن تتقدم منه ، وينبغى حينئذ على العرُوس أن تُقبِّل الأرض بين يديه ثم يأخذ بيديها ويُجلسها إلى جواره ثم يَخلع عليها من الجواهر والثياب [٦] .

---

(١) المُنتظم ، جـ٩، ص٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٨ ، ص٢٢٩ .

(٣) سورة النساء ، آية ٥٨ .

(٤) ابن الجوزى ، المصدر نفسه ، نفس الجزء نفس الصفحة .

(٥) المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة .

(٦) المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة .

وفى صبيحة اليوم التالى فإنه كان ينبغى على والد العروس أن يقوم بزيارة الخليفة لتهنئته ، وكان يخرج من قصره فى موكب حافل بينما يَحتشد الناس على جانبى الطريق وينبغى أن يقوم والد العروس بإلقاء الدنانير والدراهم على رؤوس المُحتشدين ، وكانت هذه العادة تسمى بالنثار [١] وقد نثر ملكشاه صبيحة زواج ابنته من المُقتدى نثاراً تَكلف فيه مبالغ طائلة حتى قيل " أن بغداد لم تَر نِثارا مثل نِثار مَلكشاه قديماً ولا حديثاً " [٢] .

أما عن احتفال العامة بليلة العُرس فإنها لم تكن تخلو أيضا من البهجة حيث كان ينبغى على أهل العروس أن يستأجروا " ماشطة " وهى إحدى السيدات الخبيرات فى ضروب تجميل وتزيين النساء ، كما كانوا أيضا يستعيرون للعروس من الجيران سائر ما يصلح لها من الحلى والثياب لتصلح به شأنها ، ولم تكن عملية استعارة الحُلى والثياب عملية تُشين من يفعلها بل كانت تمثل سلوكاً اجتماعياً شائعاً بين النساء ، وكان من المعتاد أن تقوم أم العرُوس بعملية الاستعارة لزينة العروس فى يوم العُرس حيث تخرج بصحبة موكب كبير من أهل العرُوس والمُهنئين حيث يقومون بالمُرور على منازل الأهل والجيران بالحى للاستعارة [٣] .

وكان من المُعتاد أن يتم زفاف العروس على متن مَحفَّة تسير بها وسط موكب كبير إلى منزل زوجها [٤] ويقول ابن الجوزى بأنه شاع أن يتم الاحتفال بالزفاف على متون السَميريَات [٥] فى نهر دجلة [٦] وكانت رسوم الزفاف لا تخلو أيضا من الطرافة إذ كان ينبغى أن تصحب النسوة العرُوس إلى غرفة الزوج ثم يرفعنَ البُرقُع عن وجهها ويطلُبنَ من الزوج أن ينظر إلى عروسه ، فإذا تبسم لها جلست تحت قدميه ، ولا تخرج المَاشطة إلا بعد أن يَخلع عليها الزوج أو يُعطيها مالاً [٧] .

---

[١] ماري : أخبار بطاركة ، ص١٣٢ .

[٢] المصدر نفسه ، ص١٣٣ .

[٣] المنتظم ، جـ١٠،ص٢٢١ .

[٤] تُصور أحد الرسوم فوق طبق من الخزف يمثل موكب عُرس ، وقد جلست العروس داخل المَحفة بينما أحاطت بها النساء من الأهل والمدعوات ، انظر الملاحق ، ملحق ٢/٥ .

[٥] السَميرية : ضرب من السُفن العراقية ذات الحجم الصغير ، وكانت أول الأمر تستخدم فى أعمال القتال النهرى ، ثم لم تلبث بعد ذلك أن استخدمت فى أعمال الملاحة ونقل الركاب والبضائع على نهر دجلة ، درويش النخيلى : السفن الإسلامية على حروف المعجم ، الإسكندرية (١٩٧٤) ص٦٧ .

[٦] ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠،ص٢٢١ .

[٧] مجهول : النوادر العجيبة ، جـ١،ص٧٠ .

أما عن طقوس الزواج عند أهل الذمة فبالنسبة للنصارى فقد انقسم نصارى العراق إلى طائفتين كبيرتين وهما النساطرة واليعاقبة [٨] ، ولم يكن يسمح لأى من الطائفتين بالزواج من الطائفة الأخرى وفى إحدى المرات حاول طبيب نسطورى يدعى أبو غالب كسر تلك القيود الاجتماعية عندما تزوج من ابنة رجل يعقوبى يدعى أبو طاهر البلدى ، وعقد له برضاء أبيها قس نسطورى ، وعندما علم جاثليق النساطرة بتلك الزيجة ثارت ثورته وأمر بحرمان القس الذى عقد عليهما كما أمر بفسخ ذلك الزواج ، واستدعى مطران اليعاقبة وقال له " نحن رئيسان لشعبين وبيعتين (أى كنيستين) فأقر مطران اليعاقبة بخطأ الرجل اليعقوبى " [١] .

وكان من المتبع أن يتولى الجاثليق بنفسه إقامة شعائر الزواج الدينية لكبار عائلات النصارى ببغداد ، أما بالنسبة لباقى النصارى ببغداد وسائر العراق فكان المتبع أن يتوجه أحد القسس الموكلين من قبل الجاثليق إلى منزل العروس ليقوم بطقوس الزواج الدينية [٢] .

ولم يختلف الأمر كثيرا بالنسبة لليهود الذين قدر بنيامين التطيلى (زار بغداد عام ٥٦٦هـ/١٠٧٠م) أعدادهم ببغداد بأربعين ألفا وكانوا ينقسمون أيضا إلى طائفتين كبيرتين وهما الربانيين والقرائين [٣] ، وكان الزواج بين هاتين الطائفتين أيضا يعد أمرا دينيا مجظورا نظرا لتكفير كل منهما للأخرى [٤] ، ونفهم من الربى فتاحيا (زار بغداد عام ٥٧٧هـ/١٠٨١م) أن اليهود ببغداد كانوا يحرصون على زواج بناتهم فى سن صغيرة نسبيا ، وكانت نسبة كبيرة من النذور فى المعابد وتبرعات الحجاج تنصرف إلى مساعدة الفتيات المقبلات على الزواج حيث تعين تلك التبرعات الأسر اليهودية على تجهيز بناتهم [٥] ، ولا تكاد المصادر تعيننا بإمدادنا بالمزيد من التفصيلات فى هذا الصدد .

---

(١) يرجع الاختلاف الرئيسى بين اليعاقبة والنساطرة إلى الخلاف حول لاهوت المسيح فبينما يرى النساطرة أن المسيح له طبيعتان واحدة إلهية والأخرى بشرية يعتقد اليعاقبة بمشيئة واحدة للمسيح وإرادة واحدة أيضا .

(٢) مارى : أخبار بطاركة ، ص١٢٥ ؛ فيبه : أحوال النصارى ، ص٢٨٧ . ولا نسمع فى المصادر بعد ذلك عن زواج تم بين النساطرة واليعاقبة ، مما يشير إلى أنه قد تم تغليظ عقوبة من يفعل ذلك إلى الحرمان من كنيسته .

(٣) مارى : المصدر نفسه ، ص٢٥ .

(٤) يكمن الخلاف الأساسى بين الربانيين والقرائين فى أن القرائين لا يعترفون بالتلمود وسموا هكذا بالقرائين أو بنى المقرأ نتيجة تمسكهم الحرفى بالتوراة ورفضهم ما عداها من كتب التشريع اليهودية ، انظر :- عزرا حداد : القراءون ، دراسة منشورة ضمن كتاب رحلة بنيامين التطيلى ، ص ١٩١ وما بعدها .

(٥) عزرا حداد : المرجع نفسه ، ص ١٩٣ .

(5) Rabbi Phtahia of Ratsebone: Traveling of Rabbi Phtahia, a Part of Book the Jewish Travelers , Edited By E.Nathan Adler . London (1930) p 75 .

أما الصابئة [١] وهم الفريق الثالث الذين اعترفت الخلافة العباسية بهم كفريق ثالث من أهل الذمة فى العراق آنذاك ، فأبيح للصابئ أن يتزوج ما طاب له من النساء بدون حد أقصى فقط كان يلزم الصابئ أن يتعهد بالمساواة بين زوجاته اللائى يجمعهن فى عصمته [٢] وكانت رسوم الزواج تتم بين الصابئة بأن ينتقل العروسان بصحبة الأهل والمهنئين إلى شاطئ دجلة ، ثم يقوم رجل الدين بتعميد العروسين بالماء ثلاث مرات ثم رش الماء على جسديهما ثلاث مرات ، ثم يعودان إلى الدار حيث تقوم العروس بأعداد نوع من الطعام الطقسى مكون من الجوز والزيت والتمر ، ولا تنتهى طقوس الزواج فعليا عند الصابئة إلا بعد أن يتناول العروسان والمهنئون من هذا الطعام [٣] .

ومن الملاحظ أن العرف الاجتماعى قد لعب دورا كبيرا فى المحافظة على ثبات الأوضاع الطبقية والمصالح الاقتصادية لمصلحة الطبقة العليا لذا تشدد المجتمع العراقى فى تطبيق

---

(١) الصابئة : عقيدة يحيط الغموض بأصل نشأتها ، ويفترض الباحثون الآن أن أصل ديانة الصابئة قد مرت بعدة أطوار رئيسية حتى وصلت إلى ما نعرفه اليوم عنها ، إذ بدأت كإحدى الديانات المتفرعة عن ديانة أهل بابل القديمة الخاصة بعبادة النجوم والكواكب والأجرام السماوية ، ويمكن الاستدلال على ذلك بان الأصل اللغوى لكلمة الصابئة يفترض أنه كلمة بابلية قديمة انتقلت إلى العبرية إبان مقام اليهود ببابل وهى كلمة " صبؤت " والتى تعنى فى كل من العبرية والبابلية القديمة " جند السماء " أى الكواكب والنجوم ، وفى مرحلة تالية تأثرت ديانة الصابئة باليهودية حيث انتقل إليها القول بالتوحيد ، مع الاحتفاظ بتقديس الكواكب والنجوم على أنها صور وأشكال ترمز للملائكة ، أما الطور الثالث من أطوار تطور ديانة الصابئة فهو تأثرها بالمسيحية ، فقد تأثرت الصابئة كثيرا بتعاليم الغنوصيين ، وهم طائفة ممن حاولوا التوفيق بين المسيحية ومبادئ الفلسفة الإغريقية القديمة ، وقد تسمى الصابئة بالمندعيين " **Mandaeanism** " أى المعرفيين ، كما تأثروا بشدة بتعاليم يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا عليه السلام) والخاصة برسوم التعميد والغطاس بالماء كرمز للخلاص والتحرر من الخطايا ، وكانت المرحلة الأخيرة من مراحل تطور ديانة الصابئة هى تأثرهم بالإسلام وبالأخص فيما يتعلق باجتهادات الفقهاء المسلمين فيما يختص بشئون المعاملات والعبادات ، للتوسع انظر :- أنستاس مارى الكرملى : الصابئة ، *مجلة المشرق* ، بيروت (١٩٠٠) ص٧٨ وما بعدها عبد الرازق الحسنى : الصابئة فى ماضيهم وحاضرهم ، بيروت (د.ت) ؛ على محمد عبد الوهاب : الصابئة ، القاهرة (١٩٩٦) .

(٢) على محمد عبد الوهاب : الصابئة ، ص١٣٩ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

معيار الكفاءة فى الزواج [١] ، فنلحظ ميل مختلف طوائف المجتمع العراقى واشتطاطهم فى تطبيق معيار الكفاءة عند الزواج وبصفة خاصة اتباع المذهب الحنبلى [٢] ، إذ عد عدم تواجد شرط الكفاءة مبررا يعطى الحق لولى أمر المرأة فى فسخ الزواج حتى وإن كان الزوج قد دخل بزوجته فعليا أو مضت عدة سنوات على هذا الزواج [٣] .

واستخدم شرط الكفاءة فى الزواج كوسيلة للتفرقة بين الطبقات ولتجميد الوضع الاجتماعى والطبقى بمنع المنتمين من الطبقات الدنيا من استخدام الزواج والمصاهرة كوسيلة للترقى الاجتماعى ، وبعبارة أخرى استخدم شرط الكفاءة لتجميد الحراك الاجتماعى بين الطبقات والحفاظ على الامتيازات الطبقية ، كما مثل هذا الشرط قيدا على حرية النساء فى اختيار أزواجهن .

وكان المبدأ الأول فى شروط الكفاءة هو الكفاءة فى الحسب والنسب [٤] ومن الملاحظ أن طبقة الأشراف والتى كانت تتكون من مختلف قبائل قريش كان لها وضعها الطبقى المميز

---

(١) الكفاءة فى اللغة اسم مصدر للفعل تكافأ أى تماثل وتناظر وتساوى ، والتكافؤ هو التماثل ، ويقال فلان كفؤ لفلان أى نظير له وند ، وتعنى الكفاءة فى الزواج تساوى وتناظر الزوجين من حيث الإسلام ثم الحسب والنسب ثم المال والثروة ، انظر : المعجم الوجيز ، مادة كفأ ، ص ٥٣٦ ، وليس صحيحا ما قال به الأستاذ موريس - غ. ديموبين من أن القرآن الكريم كان هو الذى نص على مبدأ الكفاءة فى الزواج إذ لم يسمح للمرأة أن تتزوج دون طبقتها " النظم الإسلامية ، ترجمة صالح الشماع (وآخرون) بغداد (د.ت) ص٧٦ ، وبغض النظر عن أن الأستاذ موريس لم يذكر نص الآية أو الآيات القرآنية التى يدعى أنها قد قررت مبدأ الكفاءة فى الزواج فإن رأيه هذا لا يكاد يصمد أمام النقد فبالعكس تماما من ذلك فإننا نلمح فى قوله تعالى " ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم " سورة البقرة ، آية ٢٢١ ، كذلك فى حديث الرسول ﷺ إذا جاءكم من ترضون خلقه و دينه فزوجوه ، ألا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض " الترمذى : مسند الترمذى المعروف بسنن الترمذى ، دار سحنون ، تونس (١٩٩٢) باب الزواج ، جـ١،ص١٤٥ ، ما يثبت ما عرف عن الإسلام من إحلال الرابطة الإيمانية بدلا من رابطة النسب أو العصبية كذلك محاربة الإسلام لأنواع التعصب القبلى أو التفرقة بين الطبقات بمعيار المال أو أى معيار آخر ، يقول تعالى " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " سورة الحجرات ، آية ١٣ ، ويعتقد الترمانينى أن نظام الكفاءة قد عرف بين العرب قبل الإسلام ، وقد أبطله الإسلام فى صدره الأول لا سيما فى عصر الرسول ﷺ إلا أنه سرعان ما عاد ذلك النظام متدثرا ببعض القواعد الشرعية والتى لا تصمد أمام النقد الفقهى لها ، الزواج ص١٧٠ .

(٢) نسب إلى الإمام أحمد ابن حنبل قوله " إذا كان الرجل كفؤا للمرأة فى المال والحسب إلا أنه يشرب المسكر فإن المرأة لا تزوج به فليس كفؤا لها " أبو يعلى الفراء : طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت (د.ت) جـ١،ص٤٨ .

(٣) ابن أبى الدم الحموى : أدب القضاء ، جـ١،ص٤٤١ .

(٤) ومن ضمن شروط الكفاءة فى الحسب أن من أسلم بنفسه ليس كفئا لمن له أبوان فى الإسلام " ابن أبى الدم : أدب القضاء ، جـ٢، ص٤٥٠ .

فى المجتمع العراقى ، ويأتى على رأس هذه الطبقة الهاشميون أو بنو هاشم وهم آل الرسول ﷺ الذين انقسموا إلى فرعين رئيسيين هما آل العباس وهم أهل بيت الخلافة ، والطالبيين وهم أبناء عمومتهم من أبناء على بن أبى طالب ، وكان الخليفة يعين نقيبا للهاشميين جميعا وكان من أخص واجبات ذلك النقيب فرض الحظر على نساء الهاشميين والنظر فى عقود أنكحتهن ، بحيث لا تتزوج هاشمية إلا هاشميا مثلها ، وإلا فلا تتزوج على الإطلاق .

وبالنظر إلى نسخ العهد بولاية نقابتى كل من الهاشميين والطالبيين لهؤلاء النقباء نجد أن الخلفاء شددوا عليهم فيما يخص مسألة منع الهاشميات من الزواج بغير الهاشميين وتطبيق شروط وقواعد الكفاءة بمنتهى الصرامة ، ولحسن الحظ وصلت إلينا نسختان من هذه العهود ترجع إحداها إلى الخليفة المطيع الذى عهد بنقابة الهاشميين لأحد النقباء جاء فيها " واحتط فى أمر المناكح حتى لا تفصل (أى تنفصل) أيم (أى المرأة التى لا زوج لها) عن الجماعة إلى دنئ ولا تقع إلا لكفؤ " (١) كما جاء فى عهد آخر من الخليفة الناصر إلى أحد النقباء ما نصه " ولتتوخ تطهير عقود نكاحهن (أى نساء الطالبيين) من أدناس الالتباس ، وتنزهها عن أدران الأنجاس " (٢) .

ومن الملاحظ أن الأشراف الهاشميون كانوا بالفعل يتشددون فى تطبيق مبدأ الكفاءة تجاه غير المنتمين إلى بنى هاشم ، حتى أن رجلا من الهاشميين فضل قتل ابنته عام ٤٨٧هـ/١٠٨٥م عندما اعتدى على عذريتها أحد الشبان ولم يقبل بعرض الشاب الزواج من ابنته لدرء الفضيحة (٣) وهو ما يشير إلى أن خوف الهاشمى من مصاهرة أحد العامة كان أكبر من خوفه من اشتهار الفضيحة ، ومن مظاهر الغلو والتشدد فى تطبيق معيار الكفاءة عند الزواج ما يعرف بمسألة " مهر المثل " وهو يتلخص فى ألا تقبل الزوجة من الزوج الكفء سوى مهر مثيلاتها من النساء ممن فى حكمها أوفى طبقتها وإذا رضيت منه بأقل من مهر المثل جاز لوليها فسخ عقد النكاح ، وكان القاضى البغدادى الحسين بن إسماعيل المحاملى (ت٣٧٧هـ/٩٨٧م) يفتى بجواز فسخ ولى الأمر لعقد زواج ابنته أو من فى حكمها إذا استطاع الإثبات بالبينة على الزوج مخالفته لشروط مهر المثل (٤) .

---

(١) أبو إسحاق الصابئ : رسائل الصابئ ، ص٢٢١ .

(٢) ابن الساعى : الجامع المختصر ، ص١٩٧ .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩، ص١٦ .

(٤) ابن أبى الدم الحموى : أدب القضاء ، جـ١،ص٤٤١ .

أما عقود أنكحة العامة فكانت موكلة إلى القضاة ، ونجد أيضا أن الخلفاء فى مراسيمهم المتكررة للقضاة قد شددوا على ضرورة تطبيق مبدأ الكفاءة وأهمها الكفاءة فى المال والطبقة الاجتماعية ، نجد ذلك فى عهود تولية القضاة ، ففى عهد من الخليفة الطائع لأحد القضاة جاء فيه " ... وأمره بتزويج الأيامى اللائى ولايتهن إليه وعقدتهن بيديه متخيرا الأكفاء " (١) ، كذلك فى نسخة عهد بالقضاء من قبل الخليفة الناصر إلى أحد القضاة والتى جاء فيها " وأمره بتزويج الأيامى اللواتى لا أولياء لهن من أكفائهن " (٢) .

وكان فسخ عقود النكاح بحجة عدم الكفاءة يستلزم أن يتوجه ولى أمر المرأة إلى القاضى ويطلب منه فسخ عقد النكاح لعدم الكفاءة ، وكان ينبغى على القاضى أن يأمر باستدعاء الزوجين ، فإذا رأى صحة دعوى ولى الأمر أمر بفسخ العقد ، وإلا أخلى سبيلهما (٣) .

وفى واقعة من هذا النوع عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م فسخ ابن الوزير أبو المظفر بن رئيس الرؤساء (ت٥٧٣هـ/١١٧٧م) وزير الخليفة المستضئ عقد نكاح ابنته التى تزوجت بأحد الجنود الأتراك ممن ترك الجندية وانقطع للعبادة والتصوف ، يقول ابن شاهنشاه " وتطرق الأذى إلى بيت رئيس الرؤساء وتزوجت إحدى بنات كمال الدين برجل يعرف بابن مالك كان جنديا وتصوف بعد أن كانت مسماة على ابن قطب الدين قيماز وفسخ أبوها النكاح وقال هذا ليس بكفؤ ، وتناهت الحال بهذا البيت وأهله إلى أن صاروا من أدون الناس حالا " (٤) ولا شك أن النص السابق يعبر تعبيرا قويا عن الصرامة التى اتبعت فى تطبيق معيار الكفاءة فبالرغم من تدنى الوضع المالى والاجتماعى لبيت الوزير أبى المظفر فإن كون جد الزوجة أحد الأعيان السابقين بالإضافة إلى وزارته السابقة للخليفة المستضئ كان من شأنه فسخ عقد النكاح نتيجة لانعدام الكفاءة .

ومن الطريف أن تنقل لنا المصادر صورة إحدى النساء اللائى استطعن تحدى تلك القيود الاجتماعية الصارمة لنظام الكفاءة وهى السيدة الحرة والتى لم يصلنا اسمها وهى إحدى أمهات أولاد الخليفة المقتدر ، وكانت هذه السيدة التى أفلتت بأموالها عقب مقتل الخليفة المقتدر عام ٣٢٠هـ/٩٣٢م ، رغبت فى الزواج عام ٣٤٥هـ/ ٩٥٧م من شاب كان يعمل لديها كان

---

(١) الصاحب ابن عباد : رسائل الصاحب ابن عباد ، تحقيق عبد الوهاب عزام ، شوقي ضيف ، دار الفكر العربى ، القاهرة (١٣٦٦هـ) ص٣٨ .

(٢) محمد ماهر حمادة : مجموعة الوثائق السياسية والإدارية العائدة إلى العصور العباسية المتتابعة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (١٩٩٥) ص١٨٥ .

(٣) مجهول : دقائق الحلل ، ص٢٠٧ .

(٤) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ٧٤ .

يدعى محمد بن أبى عسرون البغدادى ، وهو الذى عرف بين أهل بغداد باسم بزوج الحـرة ، يقول الخطيب البغدادى " ... وكانت قد أحبته وأخذت فى ترقيته حتى صار وكيل مطبخها ، ثم وكيلا لها فى ضياعها وعقارها حتى علق قلبها به فاستدعته إلى الزواج منه فلم يجسر علـى ذلك فجسرته وبذلت له المال حتى تم ذلك فتأثلت حاله وظهرت عليه النعمة حتى لا يمنعـها أولياؤها منه بالفقر وأنه ليس بكفؤ " [١] .

وهكذا استطاعت هذه السيدة تحدى القيود الشكلية لنظام الكفاءة والتى يمكـن أن يثيرهـا أولياؤها عند رفع دعواهم أمام القضاء بانعدام الكفاءة بأن قـامت بتمليكـه بعـض الأمـوال والعقارات حتى لا يحتجوا بفقره ، ومن الملاحظ أنه حينما تم ذلك الزواج لجأ ذووها بـالفعل إلى القاضى أبى السائب عتبة ابن عبيد الله (ت٣٥٠هـ/٩٦١) لكنها استطاعت رشوته ، يقول القاضى التنوخى :- " فهادت القاضى بهدايا جليلة وغالبت أولياؤها بالدراهم حتـى تـم لـها الأمـر " [٢] .

كما لعبت أيضا الظروف الاجتماعية والعرف الاجتماعى الذى ساد فى العـراق خـلال العصرين البويهى والسلجوقى دورا كبيرا فى استهجان أنواع من الزواج لا غبار عليها مـن الناحية الدينية مثل زواج الأرامل ، حيث كان زواج الأرملة يعد فعلا شائنا وعيبا اجتماعيـا خطيرا يستوجب العار سواء للأرملة التى تقدم على ذلك أو لأبنائها [٣] ، وبناء على ذلك فقـد

---

[١] تاريخ بغداد ، جـ٢،ص١٥٣ .

[٢] نشوار المحاضرة : جـ٥، ص١٠ ؛ ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٧،ص١٨٦؛ الصفدى : الوافى ، جـ٢،ص٣٠٢

[٣] ذهب الأستاذ برنارد لويس إلى أن نفور أهل العراق من عادة زواج الأرامل يرجع إلى تـأثرهم بتعـاليم الزرادشتية القديمة والتى كانت تعتبر المرأة ملكا لزوجها الأول ، ولم تكن تبيح لها الزواج إلا بصفتها زوجـة أقل مكانة ، انظر :-

Bernard Lwis : The Arab In History , London (1958) p109 .

إلا أن الباحث يرى أن عادة استهجان الزواج الثانى للمرأة فى المشرق الإسلامي كان عادة سامية ضاربة فى القدم ، إذ كان هذا التقليد معروفا عند الآشوريين والحيثيين بهدف تأمين وثبات أملاك العائلة وتخليد النسـل ، وقد انتقل هذا التقليد إلى الحضارات السامية واتخذ أشكالا متقاربة ، فقد عرفه العـبرانيون باسـم شـريعة " الحبورة " إذ كان على شقيق زوج الأرملة المتوفى أن يتزوج زوجة أخيه بعد وفاته حتـى لا تـتزوج تلـك الأرملة من خارج بيت الزوج الأول وجميع ما ينجبه الشقيق من أبناء يكونون باسم أخيه المتوفى ، وإذا مـا رفض شقيق الزوج الدخول على زوجة أخيه " تتقدم إليه امرأة أخيه بحضرة الشيوخ وتخلع نعله من رجلـه وتبصق فى وجهه قائلة هكذا يفعل بالرجل الذي لا يبنى ببيت أخيه فيدعى فى إسرائيل ببيت مخلوع النعـل " العهد القديم ، الترجمة المسكونية للكتاب المقدس ، دار المشرق ، بيروت (د.ت) سفر تثنية الاشـتراع [٢٥: ٨-١٠] وقد اتخذ تقليد خلع النعل عند العرب قبل الإسلام شكلا آخر ، إذ عرف ضمن أشكال الأنكحة عنـد العرب قبل الإسلام زواج المقت أو نكاح العضل ، حيث كان الولد يرث عن أبيه جميع نسـائه ويعضلـهن حتى لا يتزوجن بعد أبيه ، وكان من الممكن ألا يعامل الوارث زوجة أبيه كزوجة فعلية وإنما يكتفـى فقـط بإعضالها ومنعها من الزواج ، فإذا أراد أن يفك عضالها فإنه كان يخلع نعله أمامها دلالة إلى أنها قـد نـالت حريتها ، محمود عرفة محمود : العرب قبل الإسلام ، القاهرة (١٩٩٨) ص٣٨١ ، وعندما أحـل الإسـلام زواج الأرامل وأصبح لا غبار عليه من الناحية الدينية فإن هذه العادة قد اتخذت شكلا من أشـكال الرفـض الاجتماعى لها .

اعتبرت مناسبة زواج الأم مناسبة هامة للتعزية والمواساة حيث كان من الشائع أن يتم تبادل خطابات التعزية فى مثل هذه المناسبة ، وتدل بعض العبارات المستخدمة فى تلك الخطابات على شدة وقع مثل هذا الزواج اجتماعيا ، وعلى سبيل المثال أورد القاضى التنوخى فى أحد تلك الخطابات وجاء فيه " أما بعد فإن الأمور تجرى من عند الله بغير محبة عباده ولا اختيارهم بل هو تعالى يختار لهم ما أحب ، وقد بلغنى تزويج الوالدة خار الله لك فى قبضها فإن القبر أكرم الأزواج وأستر للعيوب والسلام " (١) .

ونظرا لأهمية موقع العراق فى منتصف طريق التجارة بين أوربا والصين فقد انتشرت أيضا فى المجتمع العراقى ظاهرة انتشار زواج المسيار أو الزواج المؤقت والمحدد بمدة بقاء الزوج فى بلد الزوجة ، وزواج المسيار هو عقد زواج مؤقت يتفق فيه الزوج والزوجة على الزواج طيلة مدة وجود الزوج المسافر فى بلادها ، فإذا أراد الرحيل عنها أعطاها أجلا لرجوعه وهى مدة محددة تذكر فى العقد وهى غالبا دون السنة الواحدة فإذا عاد استمرا أزواجا وإذا لم يعد فأمرها بيدها (٢) . ونشأ ذلك الزواج بحكم سفر التجار والمشتغلين بالتجارة على المدن الرئيسية الهامة من الناحية التجارية مثل بغداد والبصرة والكوفة وواسط وغيرها لمدد متفاوتة فى الطول حيث دأب المسافرون والرحالة والتجار والمغتربين على الزواج المؤقت أو المحدد بمدة إقامة ذلك المغترب ببغداد أو غيرها من مدن العراق (٣) ، ولا ريب أن أحد عوامل انتشار هذا النمط من أنماط الزواج هو ضعف معدلات الزواج فى مقابل عادة التسرى بالجوارى ، إضافة إلى أن هذا النوع من أنواع الزواج لم يكن يثقل كاهل الأسر التى تقدم على تزويج بناتها من الأغراب بتحمل مصروفات الجهاز والزفاف الخ ، ويستفاد مما ذكره برزك بن شهريار الذى دون كتابه ببغداد قرب منتصف القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أن الدلالات كن هن اللائى يقمن بالتوفيق بين الأغراب من التجار والمسافرين الوافدين إلى بغداد ممن لا يعرفون أهلها للزواج بصفة مؤقتة (٤) ، وحتى قام الرحالة العربى الشهير ابن بطوطة (ت٧٧٧هـ/١٣٧٥م) برحلته قرب منتصف القرن الثامن الهجرى/الرابع

---

(١) الفرج بعد الشدة ، جـ٣ ، ص٣١٢ .

(٢) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ص ٢٠ .

(٣) ربما يكون هذا النوع من الزواج هو ما أشار إليه الجاحظ قرب نهاية القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى باسم الزواج النهارى ، يقول الجاحظ " فأما المالكى فانه تعشق جارية يقال له سندرة ثم تزوجها نهارية " كتاب الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الحلبى ، القاهرة (د.ت) جـ٥،ص٤١٧ ، كما يقول فى موضع آخر على لسان إحدى النساء " ويحك يا أبا القمقام أنى قد تزوجت زوجا نهاريا " كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجرى ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٧١) ص١٠٤ ، ولم يستطع الباحثون الوقوف على ما يعنيه الجاحظ بهذا النوع من الزواج ، انظر :- طيبة صالح الشذر : ألفاظ الحضارة العباسية فى مؤلفات الجاحظ ، دارقباء ، القاهرة (١٩٨٨) ص٣٩٨ .

(٤) برزك بن شهريار : كتاب عجائب الهند والصين ، بره وبحره وجزايره ، ليدن (١٨٨٣) ص١٢٨ .

عشر الميلادى فإن هذا الزواج كان لا يزال معمولا به فى العراق وفى المشـــرق الإسـلامى بصفة عامة حيث تزوج ابن بطوطة نفسه عدة مرات زواج مسيار اثناء تجواله بالشرق (١) .

أما بالنسبة لزواج المسلم من المرأة الذمية فقد أباح الإسلام زواج الرجل من المرأة الذمية ، ولا نستطيع القول بشيوع هذا النوع من أنواع الزواج خلال العصر موضع الدراسة لا سيما فى ضوء عدم وجود مادة مصدرية كافية يمكن أن نحكم من خلالها على مدى شـــيوع هـذا النمط من أنماط الزواج المتباين الديانات ، لكن وطبقا لما وصلنا المصادر المعـاصرة فـإن زواج المسلم من يهودية أو نصرانية كان عادة مألوفة وإن كنا أيضا نحاول الاحـــتراز مـن وصفها بأنها عادة شائعة وفى الحالتين اللتين رصدتهما الدراسة فإن الزوجة كانت تبقى علـى ديانتها (٢) .

أما زواج المسلمة من رجل ذمى فكان محرما بالإطلاق ، وكان حكمـــه حكـم الزنــا ، وبالرغم من ذلك فإنه من المدهش أن ترصد الدراسة عدة حالات من هذا القبيل ، ويتهم ابــن فضلان فى وثيقته الشهيرة باسمه (٣) طائفتى الجهابذة والصيارفة مـــن اليــهود والنصـارى باستغلال أموالهم فى إغواء نساء المسلمين لتحصيل ملذاتهم (٤) ، وكان ضبــط مثـل هـذه الحوداث كفيل بإثارة الفتن والقلاقل بين المسلمين وبيــن أهـل الذمــة ، كمــا حـدث عـام ٣٩٢هـ/١٠٠١م إذ تم ضبط كاتب نصرانى متزوجا من مسلمة مما أدى إلى مهاجمة العامـة من المسلمين لإحدى الكنائس وإحراقها وبداخلها خمسين شخصا (١) كما تم أيضا ضبـط زواج

---

(١) ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص ص ٥٩١،٢٤٨ .

(٢) مثل زوجة الفقيه أبو الفتح ابن الربى الحنفى (ت٥٦٨هـ/١١٧٢م) والتى كانت يهوديتها حـــائلا دون أن ترث منه ، فلجأ إلى أن يبيع لها أملاكه وأن يترك ورثته من المسلمين دون إرث فاستجلب من النـــاس ذمـا كثيرا " ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠، ص٢٤٢ ، كما كان أبو طاهر بن يوسف صاحب مخزن المسترشـد متزوجا من زوجة نصرانية ، ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠،ص٥٣٧ ؛ فييه : أحوال النصارى ، ص٢٢٤ .

(٣) ابن فضلان : أبو عبد الله بن يحيى الفقيه الشافعى الذى تولى النظر فى ديوان الجوالى واستيفاء ثـروات أهل الذمة عام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص٧ ، ووثيقته التى عرفت بوثيقة ابـن فضلان تتحدث عن أوضاع أهل الذمة فى عصر الخليفة الناصر لدين الله ، وقد وقع العديد من الباحثين فـى خطأ غير مقصود إبان تصديهم لتاريخ وثيقة ابن فضلان بعام ٦٢٦هـ/١٢٢٨م وهو العام نفسه الذى تولـى فيه ابن فضلان ديوان الجوالى انظر : مقدمة كتاب الحوادث الجامعة ،ص٧ ؛ فييـه : أحـوال النصـارى ، ص٣٥٩ ، غير أن الباحث يعتقد أن تاريخ كتابة هذه الوثيقة لا يمكن أن يتعدى بحـال مـن الأحـوال عـام ٥٧٨هـ/١١٨٢م وهو ذلك العام الذى أمر فيه الخليفة الناصر بإلزام أهل الذمة بالشروط العمرية ، لأن ابـن فضلان يشدد هجومه على كاتب نصرانى من كبار نصارى بغداد ويدعى أبى غالب بن زطينا حيث يقول مـا نصه " هذا مع ما لهم (أى النصارى) من الحرية الزائدة والجاه القاطع والترقى على رقاب المسلمين ، وقـد شاهد العبد (يعنى نفسه) أن ابن الحاجب قد أقام ابن محرز الفقيه واقعد مكانه ابن زطينـــا كـاتب المخـزن النصرانى " والثابت لدينا أن ابن زطينا هذا قد أسلم عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨،ق١،ص٣٧٨ كما أنه قد توفى عام ٦١١هـ/١٢١٤م ، ابن الساعى : الجامع المختصر ، ص١٦١ .

(٤) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص ٦٨ .

(١) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٧٥ ؛ فييه : المرجع نفسه ،ص٢٥٩ .

آخر من هذا النوع عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م حيث تزوج سرا أحد الجهابذة اليهود بإحدى المسلمات [٢] .

وبالنسبة لظاهرة تعدد الزوجات فى العصر موضع الدراسة فمن الملاحظ أن العديد من الباحثين تصوروا شيوعه على نطاق واسع [٣] على أنه فى الحقيقة فإن تعدد الزوجات كان نوعا من أنواع الترف المقصور على الأغنياء وحدهم ، وكانت الطبقات الأفقر حالا تقتصر على زوجة واحدة طوعا أو قسرا نتيجة لضغوط الظروف الاقتصادية [٤] كما أن الباحث فى تاريخ ذلك العصر قد يلمح قيم اعتزاز بعض الرجال بالاقتصار على زوجة واحدة ، فقد كان ذلك مدعاة لافتخار البعض [٥] ، ويقول الشيخ أبو طالب المكى (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) ناصحا الشباب فى عصره بقوله " فالواحدة أروح للقلب وأقل للهم لخفة المؤونة وقلة المطالبة وأمن المنازعة " [٦] وعلى العكس كان تعدد الزوجات أمرا غير مرغوب فيه بل إن المتزوجين بأكثر من واحدة كانوا يجأرون بالشكوى [٧] .

ومما سبق يتضح أنه كانت هناك عدة طرق للزواج منها الاجتماعات والزيارات المتبادلة بين نساء الحى فضلا عن نشاط الدلالات فى التوفيق بين من يرغبون فى الزواج ، كما تمتعت المرأة بحرية كبيرة فيما يتعلق باختيار الزوج إذ لم يكن هناك ما يمكن أن يسمى بالفصل بين الجنسين ومن ثم فإن المرأة كانت هى التى كانت تختار الزوج المناسب لها فى معظم الأحيان إلا أن هذه الحرية كانت محاطة أيضا بالكثير من القيود الاجتماعية مثل نظام الكفاءة الذى اشتط المجتمع العراقى فى تطبيقه وغالى فى ذلك التطبيق كثيرا والذى وضع الكثير من القيود على الحراك الاجتماعى ومن ثم تميز المجتمع العراقى بالجمود الطبقى إلى حد كبير .

---

[٢] ابن الجوزى : المنتظم ،جـ١٠،ص٥٨ ؛ ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ، جـ٢،ص٦٨ .

[٣] انظر على سبيل المثال هذا الرأى عند :- نجية عيسى شاهين المناعى : المجتمع البغدادى فى العصر البويهى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب جامعة عين شمس ، (١٩٩٦) ص٣٨٨ ؛
S. Robertson : Marriage In Early Arabia , London (1936) p101; W.Lean: Arabian Society , p232

[٤] ريسلر : الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (د.ت) ص٦٠ ؛ كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، دار الحقيقة ، بيروت (١٩٨٣) ، ص١١١ .

[٥] الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ١،ص٢٥٢ ؛ ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ، ص١٣٧ .

[٦] ابوطالب المكى : قوت القلوب ، جـ١،ص٢٠٥

[٧] ريسلر : الحضارة العربية ، ص ٦٠ ، ومن تلك الشكاوى الطريفة :-

تزوجت اثنتين لفرط جهلى ... آه مما يشقى به زوج اثنتين
رضا هذى يسخط هذى ... فما أخلو من إحدى السخطتين

ابن الفوطى : تلخيص مجمع ، جـ٤، ق٤ ،ص٦٩٥ .

من ناحية أخرى جسدت رسوم ونظم الزواج ذلك الفرق الشاسع والهوة الكبيرة التى كانت تفصل بين مختلف الطبقات الاجتماعية فعلى حين امتازت مراسمه بالفخامة والمبالغة الشديدة فى الاحتفال بتلك المناسبة بالنسبة للطبقات العليا مالت هذه الرسوم إلى البساطة عند الطبقات الأفقر حالا ، كما تميز أيضا فى الرغبة فى المحافظة على الانغلاق الطائفى بمنع المصاهرة بين الطوائف الدينية الواحدة والمختلفة مذهبيا فمنع الزواج والمصاهرة بين كل من المسلمين السنة والشيعة وكان يمنع الزواج بين النصارى النساطرة واليعاقبة ونفس الشئ كان سائدا بين اليهود القرائين والربانيين .

إضافة إلى ذلك فقد نعمت المرأة بقدر كبير من المزايا التى منحتها لها الشريعة الإسلامية فاشترطت على زوجها فى كتاب النكاح ألا يتزوج عليها وألا يتخذ عليها سرية ، كما نعمت أيضا بالحماية الكاملة من السلطة يتجلى ذلك حينما شاع تزوير الأزواج للبراءات للتهرب من دفع الصداق المؤخر فإن السلطة تدخلت على الفور لإيقاف تلك الظاهرة يتجلى ذلك فى مرسم السلطان ملكشاه بأن تقوم الزوجة بنفسها بتسجيل البراءة أمام القاضى حتى يؤخذ بها وإلا لا يعتد بها فى حالة تقدم الزوج بها بمفرده أمام القاضى .

كما أدت بعض الظروف الجغرافية والحضارية والتى لعبت دورا كبيرا فى التأثير على الأحوال الاجتماعية فى العراق خلال العصر موضع الدراسة فانتشر زواج المسيار نتيجة ازدهار النشاط الاقتصادى وتوافد التجار بكثرة على العراق لوقوعه فى منتصف الطريق التجارى بين أوربا والصين ، ومما ساعد على شيوع هذا النمط من أنماط الزواج المؤقت أيضا هو شيوع ظاهرة التسرى بالجوارى والتى ساهمت أيضا فى الإضرار بمعدلات الزواج ، ومن ثم فقد وجد هذا النوع من الزواج إقبالا من بعض النساء اللائى لم يستطعن الزواج بصورة طبيعية .

إضافة إلى ذلك أدت بعض الموروثات التى ورثها العراق عن بعض الحضارات القديمة التى قامت على ضفافه قبل الفتح الإسلامى إلى استهجان بعض أنواع الزواج التى لم يحرمها الدين الإسلامى مثل عادة زواج الأرامل والتى كانت تمثل فعلا يستوجب العار ويقتضى التعزية والمواساة لأبناء الأرملة التى تقدم على ذلك الفعل .

(٢) أوضاع الجوارى فى الحياة الاجتماعية

لا شك أن الجوارى قد مثلن طائفة هامة من أهم طوائف المجتمع فى العراق خلال عهدى كل من البويهيين والسلاجقة ، والجوارى هن طبقة الأرقاء من النساء اللائى كن يقعن فى الأسر من جراء الحروب كسبايا فى أيدى المسلمين أو يخطفن من أسرهن وهن ما زلن فى طور الطفولة بواسطة عصابات خطف الرقيق ليبعن فى أسواق الرقيق كجوارى وإماء .

ومن المعروف أن الشريعة الإسلامية أباحت معاملة الرجل لجاريته معاملته للزوجة الشرعية بحكم ملك اليمين عملا بقوله تعالى " والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين " [١] وقوله تعالى : " ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم " [٢] وقوله تعالى أيضا : " والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين " [٣] .

وينبغى أن نفهم من هذا أن هذه الرخصة التى منحتها الشريعة الإسلامية للمسلمين بشأن التسرى بالجوارى إنما كان حرصا منها على إغلاق روافد الرق الرئيسية [٤] إذ أنه بمجرد

---

[١] سورة النساء آية ٢٤ .

[٢] سورة النساء آية ٢٥ .

[٣] سورة المؤمنون الآيات ٥ ، ٦ .

[٤] لا يمكن النظر إلى قضية التسرى بالجوارى فى الإسلام بمعزل عن نظرة الإسلام للرق بشكل عام ، فعلى الرغم من أن الشريعة الإسلامية لم تحرم الرق بشكل قاطع إلا أنها حرصت على إغلاق منافذه تماما ، فحضت على استبدال الأسرى إما عن طريق المال أو عن طريق افتدائهم بالأسرى المسلمين أسوة بما فعله الرسول ﷺ بعد معركة بدر ، كما حرمت استرقاق المدين سدادا لدينه ، وكذلك استرقاق المسلم للمسلم على الإطلاق ، وحضت على تأمين المعاهد العابر بأرض الإسلام ، وحرمت العدوان على الآمنين بغرض استرقاقهم ، كما جعلت قسما كبيرا من الزكاة ينصرف لتحرير الرقيق عن طريق ابتياعهم من سادتهم بالمال ، قال تعالى " " وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب " سورة البقرة ، آية ١٧٧ ، كما جعلت إعتاق الرقيق من أكرم الفضائل التى يتكرم بها العبد إلى الله ، قال تعالى " فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة " سورة البلد ، الآيات ١١-١٣ ، كما جعلت إعتاق الرقيق كفارة واجبة لكثير من الذنوب والمعاصى ، قال تعالى " وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة " سورة النساء ، آية ٩٢ ، وقال أيضا " والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا " سورة المجادلة ، آية ٣ ، وقال أيضا : " لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة " سورة المائدة ، آية ٨٩ ، ومن ذلك كله نخرج بأن الاسلام وإن لم يحرم الرق تحريما قاطعا الا أنه عمل على القضاء على منافذه الرئيسية تماما والحد من تكاثر اعداد الرقيق ذاتيا عن طريق أن يكون أبناء السيد من جاريته أحرارا ، كذلك تصبح الجارية حرة بعد أن تنجب الجارية لسيدها .

إنجاب الجارية من سيدها تصبح حُرَّة هى وابنها الذى ولدته أيضا [١] ، ومن الملاحظ أن الشريعة الإسلامية لم تضع حداً نهائياً لعدد الجوارى اللائى يمكن أن يجمعهُن المَرء وذلك على النقيض من الزوجات الشرعيات واللائى حدد الشرع الحنيف عَددهن بأربع زوجات فقط عملاً بقوله تعالى : " وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا " [٢] ، ولعل الآية الكريمة وإن عَنت بتحديد عدد الزوجات الشَرعيات من الحرائر بأربع زَوجات على أقصى تقدير فإنها لم تعنى بتحديد عدد الجوارى من ملك اليَمين بما نفهم منه أن المقصود من ذلك هو تحرير أكبر قدر منهن هن وذريتهن بعد إنجابهن لأسيادهن .

أدت الفتوحات الإسلامية فى القرنين الأول والثانى الهجريين/السابع والثامن الميلاديين إلى زيادة أعداد الجوارى اللائى كن يسقُطْن فى أيدى المسلمين كسبايا فى الحروب زيادة هائلة حتى لقد أثرت تلك الزيادة على أثمانهن تأثيرا سلبيا فانخفضت بشكل كبير ومن ثم أصبح اقتناءهن أمرا ميسورا لكافة الطبقات والفئات الاجتماعية [٣] .

وبالطبع فقد كان لشيوع ظاهرة التسرى بالجوارى آثارها الاجتماعية على المَدى البعيد بنشأة أجيال كاملة أطلق عليهم العرب الخُلص اسم المولدين أو الهَجين والشخص المُولَّد أو الهَجين هو من كان أبوه حراً ذى أصل عَربى وأمه أم ولد من أصول أعجمية ، ولم يستسغ العرب الخُلص فى البداية وجود هؤلاء المُولدين بينهم لعدة اعتبارات لعل أولها هو ذلك الميل الغَريزى للعرب فى الافتخار برفعة النسب ، وهو تقليد ورثه العرب المسلمون عن أسلافهم فى عُصور ما قبل الإسلام حيث كان للانتماء القبلى القائم على رابطة النسب والعصب فى القبيلة شأن كبير فى تحديد مكانة وشأن الفرد فيها ، ومن ثم كان انحدار نسب الفرد من أب عربى حُر وجارية أم ولد مَدعاة للمُعايرة بوضاعة الأصل مقارنة بأبناء الحَرائر من ذوات الأصل العربى الصريح ، وقد ساعد على بقاء الاعتداد بالنسب العربى كعادة اجتماعية لدى العرب ذلك الاعتماد الكامل فى كل من عصرى الخلفاء الراشدين والعصر الأُموى على العنصر العُربى واعتبار المسلمين من أهالى الأقطار المفتوحة والذين لم يكونوا ينتمون إلى

---

(١) عملاً بقول الرسول ﷺ " أيّما امرأة ولدت من سَيدها فهى مُعتقة عن دُبر منه " (أى بعد وفاته) أحمد بن حنبل : مُسند أحمد بن حنبل ، جـ١، ص٣٢١ ، وقوله أيضاً ﷺ " أُمهات الأولاد لا يُبَعن ولا يُوهَبن ولا يُورّثن وإذا مات صاحبها فهى حُرَّة " الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ١، ص٢٦٧ .

(٢) سورة النساء ، آية ٣ .

(٣) إبراهيم حركات : المجتمع الإسلامي ، ص٥١ .

أصول عربية مجرد موالى ومن ثم كانت نظرة العربى إلى أبناء أُمهات الأولاد على أنهم أنصاف مَوالى بالنظر إلى أصل الأم الأعجمى [1] .

أما السبب الثانى فى اعتقاد الباحث فلأن هؤلاء الهَجين أو المُولدين كانوا متأثرين بطبيعة الحال بثقافة وبيئة الأم التى كانت تنتمى بالطبع إلى أصول وبيئات غير عربية وكان معظمهم يُجيد لغة قوم أمه بالإضافة إلى لَكنة غير مُحبَّبة عند نُطقه للعربية حتى أنه كان يُمكن تَميز المُولَّد من العَربى القُح بمُجرد نُطق بعض الكلمات التى كان نُطق المُولَّد لها بشكل صحيح يمثل صعُوبة كَبيرة [2] ، وربما كان لهذا الازدواج الثقافى أثره فى نَبذ وازدراء العَرب لهؤلاء المُولدين [3] .

إلا أن استمرار تلك العَادة الاجتماعية فى نهاية الأمر أدى إلى ذَوبان هؤلاء المُولدين أو الهَجين فى المُجتمع الإسلامى ذوباناً تاماً ، وبلا شك فقد ساعد على ذلك انهيار وضياع قيمة العُنصُر العَربى لا سيما بعد قيام الدولة العبَّاسية التى سَعَت إلى إهمال وتحييد العُنصر العربى بالاعتماد المتزايد على عناصر الموالى وبخاصة الفُرس فى إدارة شئون الدولة إضافة إلى سَعى العَرب أنفُسهم للزواج من أهالى البلاد المفتوحة الأمر الذى أدى إلى نشأة أجيال كاملة من أبناء الحرَائر لكنهم كانوا أيضا لا ينحدرون منْ أُمهات عَربيات ، وهو الأمر الذى أدى فى النهاية إلى صبَغ وتأثر الحضارة العربية الإسلامية بالعديد من ثقافات الشعوب والأقطار المفتوحة ثم استيعابها لتلك الثقافات فى نهاية المطاف ، ومن ثم فقد ساعد ذلك الذوبان الثقافى والاجتماعى على استيعاب المجتمع لهؤلاء المولدين فى نهاية الأمر .

---

[1] لم يقف بين مَسلمة بن عبد المَلك بن مَروان وبين الخلافة سوى أنه كان ابن أَمَة ، التنوخى : الفرج بعد الشدة ، جـ١ ،ص٢٤٥ ؛ وعندما رأى الإمام زيد بن على بن أبى طالب أنه أحَق بالخلافة من الخليفة هشام بن عبد المَلك عَيَّره هشام بن عبد الملك بقوله " أتطلب الخلافة وأنت ابن أَمَة " مُستنداً فى عدم أحقيته بالخلافة لكونه مُولَد ابن جارية أم ولد ، ابن الطقطقى : الفخرى ، ص١١٢ ؛ ابن الهبارية : نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة ، تحقيق الخورى نعمة الله ، بيروت (١٩٠٠) ص٢٠٩ .

[2] الجاحظ : البيان والتبيين ، جـ١ ، ص٦٤ .

[3] نشأ تيار رافض بين العرب وأهالي الأقطار المفتوحة لهؤلاء المولدين ، ويتجلى ذلك الرفض فى استقراء بعض أدبيات تلك الحقبة ، ومن ذلك قول أحد الشعراء :-

إن أولاد السَرارى — كثروا يا رب فينا
ربى أدخلنى بلادا — لا أرى فيها هَجينا

الأصفهانى : مُحاضرات الأدباء ، جـ١ ،ص٨٥ ؛ انظر أيضا عن العلاقة بين العرب والمولدين فى بغداد فى العصر العباسى الأول :- فؤاد إفرام البستانى : تمازج العناصر البشرية فى بغداد العباسية ، ***مجلة المشرق*** ، مج ٣٢ ، بيروت (١٩٣٤) ص٤١٣ .

ولعل الحُكم العام على هؤلاء الجوارى بأنهن كن يأتين فـــى قـــاعدة الــــهرم الاجتمـــاعى بوصفهن أرقاء يُبعن ويشترين ولا يملكن حُريتهن سيكون حكماً مُتعجلا للغاية إذ أننا يمكن أن نُمايز بين عدة فئات منهن ، فمن حيث الوضع الاجتماعى فقد انقسم الجوارى إلـــى طـــائفتين رئيسيتين فكانت هناك الحَظية أو السَرية وأُم الولد ، والحَظية أو السَرية هى الجارية التى لـــم تنجب لسيدها ، وتعتبر مُجرد جارية تسرى عليها جميع أحكام الثروة المنقولـــة مـــن البيـــع والشراء والإرث والهبة [١] .

أما أم الولد وهى الجارية التى تنجب لسيدها فإنها بطبيعة الحال كانت أسعد حالاً وأعلـــى مرتبة من السرية أو الحظية التى لم تتمكن من الإنجاب لسيدها ، حتى تكاد أن تكون بمثابـــة زوجة شرعية لمالكها وإن كان هذا الانتقال فى وضع الجارية من حظية إلى أُم ولد لا يقتضى بالضرورة عَقداً أو صداقاً أو غير ذلك من الشروط والأركان الواجب توافرها فى الزواج طبقا للشريعة الإسلامية إلا أنه لا يمكن القول كذلك بأن المُسَمى فقط من محظية إلى أم ولـــد هـــو الذى أصابه التغيير فبالرغم من أن أم الولد تظل ملكاً ليمين مالكها فإنه لا يجوز لـــه شـــرعاً التصرف فيها بالبيع أو الرهن أو الهبة أو أى تصرف آخر من الناحية التجارية كان يجوز لـــه قبل أن تنجب .

كذلك لا تنقطع العلاقة بينها وبين مالكها إلا بأن يعتقها حيث لا يستطيع ردها مرة أخـــرى كجارية إلى ملك يمينه فإذا أراد ردها تزوجها زواجا صحيحا تتوافر فيه كافة شروط وأركـــان الزواج وذلك بوصفها حرة ، وللرجل الحر أن يتزوج أمة غيره بعقد زواج صحيح كما هـــو متبع عند الزواج بالحرائر ولا يمنعه من ذلك إلا أن يكون متزوجا من حرة فقد نهى الرســـول ﷺ أن تنكح الأمة على الحرة [٢] ، وليس للسيد أن يتزوج بأمته أو جاريته بعقد نكاح فقد رأى فقهاء فساد ذلك لأن عقد ملك اليمين يفيد ملك المنفعة وإباحة التمتع فلا يجتمـــع معـــه عقـــد ضعف منه [٣] ولأم الولد الحق فى أن ترث هى وابنها الذى يعد أيضا حرا ، كما لا تفـــرق شريعة الإسلامية بينه وبين اخوته الآخرين من زوجات أبيه الشرعيات من ناحيـــة الإرث أو رتب على وضعه بصفته ابن أم ولد أى نتائج شاذة عن وضع اخوته مـــن زوجاتـــه أبيـــه شرعيات .

---

[١] ابن أبى الدم : أدب القضاء ، جـ٢ ، ص ٣٢٨ .

[٢] انظر مقدمة عبد السلام هارون لرسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان ، نـــوادر المخطوطـــات ، قاهرة (١٩٥٤) ص ٣٣٩ .

[٣] المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

أما من الناحية الطبقية فنستطيع أن نرصد عدة أنماط من تقسيمات من الجـوارى ويـأتى على رأسهن جَوارى المُتعة وهن الجوارى اللائى كن يتمتعن بقدر كبير من الجمـال ، وقـد تفاوتت أثمان هؤلاء الجوارى طبقا لما كن يملكنه من الجمال وحسن المظهر ، فقد عرف كـل جنس من الجوارى بمزاياه وعيوبه فحسب وصـف الطبيب النصرانـى ابن بَطلان البغدادى (عاش فى النصف الأول من القـرن الخامس الـهجرى/ الحادى عشر الميلادى) أن الـهنديات عُرفن بحسن القوام وحظ وافر من الجمال مع صُفرة وصفاء بشرة ، لكن الشيخوخة تسـرع إليهن ، والسنديات قريبات الشبه بالهنديات غير أنهن أدق خصورا وأطول شعراً ، والمدنيـات أى الجوارى من مُولدَّات المدينة سُمر البشرة مُعتدلات القوام يتميزن بالجمال غـير أنـهن لا غَيرة لهن على الرجال ، والطائفيات وهن المولدات من أهل الطائف يتميزن بخفـة الـروح وحب الفكاهة لكنهن لا يصلحن كأمهات أولاد وذلك لأنهن لا يصلحن للحَبل ويـهلكن عند الولادة ، والبَربريات أكثرهن سُود البشرة ويوجد من بينـهن الصُفـر ويتمـيزن بالطَاعـة والإخلاص ويصلحن للولد ، أما اليَمنيات فهن أُمهات أولاد حسـان الوجـوه والزنجيـات لا يصلحن للمُتعة لقُبحهن وخشُونتهن ، والحبشيات يغلب عليهن نعومة الأجسام لكنهن يمرضـن بالسُل لعدم توافق الجو فى بلادهن وبلاد العراق ، والنوبيات عرفن بالعفة والتَصون لكن هواء العراق لا يوافقهن فإذا انتقلن من مصر إلى العراق تسـلطت عليـهن الأمـراض الحـادة ، والتركيات يتميزن بالجمال واعتدال القدود وفيهن نظافة ولباقة ، والديلميات حسـان الوجـوه وفيهن صبر على الشدائد غير أنهن يتميزن بسوء الخلق والروميـات بيـض وشـقر وزرق العيون وفيهن وفاء وأمانة لكنهن قليلات السماحة متجهمات الوجوه ، والأرمنيـات مليحـات يجمعن بين الشدة مع قوة البنية وهواء العراق يُناسبهن لكن العفة فيهن قليلة والسـرقة فيـهن فاشية وليست النظافة فى لغتهن [١] .

وكان أهل بغداد يفضلون الجوارى الصُفر أو ذوات البشـرة الصَفـراء فثمـن الجاريـة الصفراء كان من أغلى أثمان الجوارى فيتحدث ابن بطلان عن حيل النخاسين فى صبغ وجوه الجوارى باللون الأصفر عند بيعهن فى الأسواق ويبين للمشترى كيفية كشف تلك الحيل [٢] .

---

[١] ابن بطلان : رسالة جامعة لفنون نافعة فى شراء الرقيـق وتقليـب العبيـد ، ضمـن مجموعـة نـوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الهيئة العامة للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (١٩٥٤) ص ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

[٢] ابن بطلان : المصدر نفسه ، ص ٣٠٥ .

وقد شاعت ظاهرة الإسراف فى تملك جوارى المتعة حتى أن كثرة أعدادهن كانت نوعا من أنواع الوجاهة الاجتماعية وعلامة من علامات الثروة والجاه ولهذا فقد اعتاد الأغنياء وميسورى الحال أن يجمعوا بين عدد كبير من هؤلاء الجوارى ، وقد مر بنا ما ذكره أبو هلال ابن الصابئ من أن عدد الجوارى فى دار الخلافة كان يناهز على أربعة آلاف جارية [١] .

وبطبيعة الحال فقد تأثر وضع هؤلاء الجوارى الطبقى بوضع سادتهن ومن الملاحظ أن هؤلاء الجوارى قد تمتعن بوضع مميز داخل الهرم الاجتماعى فى المجتمع فقد نشأ عن ارتفاع أثمانهن ألا يقبل على شرائهن إلا أبناء الطبقة العليا ويأتى على رأس هؤلاء الجوارى حظايا وأمهات أولاد الخلفاء والأمراء والسلاطين الذين امتلكن بدورهن الأموال والقصور والحاشية وأفرد لخدمتهن الجوارى والخدم ، ثم حظايا وأمهات أولاد الطبقة الوسطى من الفقهاء والتجار والأعيان ثم أمهات أولاد الطبقة الدنيا من الصناع والحرفيين وصغار التجار ، وبالإضافة إلى أمهات الأولاد كان هناك أيضا الجوارى المغنيات وهن طائفة من الجوارى اللائى كن يجدن الغناء ومختلف ضروب الآداب والفنون كقرض الشعر وفنون البلاغة والعزف على الآلات الموسيقية وقد بلغت أثمانهن مبالغ كبيرة فكان ثمن المغنية يتجاوز الألف دينار وقفزت أسعار بعضهن ممن اشتهرن بإجادة الغناء إلى أسعار خيالية فبلغت أكثر من عشرة آلاف دينار فى بعض الأحيان .

فقد استمر الغناء خلال العصرين البويهى والسلجوقى كظاهرة من أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية آنذاك ، إذ غصت الدور والقصور بالمئات من الجوارى المغنيات ، وقد أصبح اقتناء هؤلاء الجوارى لازمة من لوازم الوجاهة الاجتماعية حتى " أن الموسر الذى لم يكن يحب سماع الغناء كان يقتنى المغنيات ليباهى بهن ضيفه بحيث يكون مجلسه مضربا للأمثال بين الناس " [٢] وكان النخ اسون يعملون على جلب معلمين متخصصين كانت مهمتهم تعليم هؤلاء الجوارى قواعد الموسيقى والضرب على العود وتحفيظهن القصائد ، وتدريبهن على غنائها إضافة إلى صقل موهبتهن فى تذوق الموسيقى والأدب العربى [٣] .

---

(١) انظر ما سبق ص ٦٦ .

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٤،ص٦٧ .

الثعالبى : يتيمة الدهر ، المكتبة الحسينية ، القاهرة (١٩٣٤) جـ٢،ص٣٤٧ ، وقد جاء أيضا ضمن أمثال أهل العراق آنذاك " المجلس لا غناء فيه كالبيت الخرب " الخطيب البغدادى : التطفيل ، ص٧٣ .

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ٤، ص٦٩ ؛ فايد العمروسى : الجوارى المغنيات ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٤٥) ص٤٤ ؛ سليمان حريتانى : الجوارى والقيان فى المجتمع العربى الإسلامي ، دار الحصاد ، دمشق (١٩٩٧) ص١٠٦ ؛ كرم البستانى : النساء العربيات ، دار صادر ، بيروت (د.ت) ص١٧ .

وقد بلغ من أهمية الجوارى المغنيات أن المغنية منهن لم تكن تباع بسوق الرقيق فهذا يعتبر حط من قدرها بل ينبغى أن يسأل عنها ويطلب مكانها [١] ويأتى على رأس هؤلاء الجوارى المغنيات طائفة الجوارى من مغنيات الخلفاء والأمراء وهن الجوارى المغنيات اللائى آل أمرهن إلى قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين ، وكن لا يقمن بالغناء إلا لسادتهن أو لضيوفهم ، وفى الغالب فإن غنائهن كان يتم من وراء ستارة تستر المغنية عن الضيوف ، فلا يسمع سوى صوتها [٢] فإذا أراد إكرام الضيف أمر بنزع الستارة فيرى الضيف المغنية وتراه [٣] .

وكانت أثمان هؤلاء المغنيات باهظة للغاية ، فقد بلغ ثمن المغنية سريرة الرائقية (ت٣٤٨هـ/٩٥٩م) مبلغ ثلاثة عشر ألف درهم أى ما يقابل ألف دينار [٤] كما بلغ ثمن مغنية يقال لها شيرين أربعة عشر ألف درهم ، وقد " ظل ذلك الثمن مضرب الأمثال بين الناس لفترات طويلة لاستعظامهم ذلك السعر " [٥] . وكان لدى الأمير عز الدولة بختيار مغنيتين بذل له صهره أبو تغلب الحمدانى فيهما مائة ألف درهم فأبى بختيار أن يبيعهما له [٦] ، وقد برزت أيضا من مغنيات ذلك العصر مواهب المغنية ، وكانت أيضا جارية عز الدولة بختيار وقد اشتهرت بذيوع صيتها وحسن صوتها [٧] وقد بلغ من شهرة مواهب المغنية أن صار الشعراء ينشدون الشعر فى نداوة صوتها وحسنه [٨] وقد آلت مواهب المغنية إلى بلاط الأمير عضد الدولة الذى كان بلاطه يشهد تنافسا كبيرا بين مغنياته لإثبات جدارتهن ، ومن المغنيات اللائى اشتهرن فى بلاط عضد الدولة مغنيتين كانتا أثيرتين عنده ، هما سلمى [٩] وكنجك [١٠] وكانت جارية تركية كما يتضح من اسمها .

---

(١) حريتانى : المرجع نفسه ، ص١٠٥ .

(٢) الوشاء : كتاب الظرف والظرفاء ، المعروف بالموشى ، دار صادر ، بيروت (١٩٦٥) ص٩٤ ؛ التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ، جـ١،ص٤٢ .

(٣) أحمد تيمور : الموسيقى والغناء عند العرب ، لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، القاهرة (١٩٦٧) ص٢٢ .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٦،ص٣٩١ ؛ ابن الساعى : نساء الخلفاء ، ص١٢٩ ؛ آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، دار الفكر العربى ، القاهرة (١٩٩٩) جـ١،ص٢٩٨ ؛ حريتانى : المرجع نفسه ، ص٩٢ .

(٥) الصولى : أخبار الراضى بالله والمتقى لله ، جزء من كتاب الأوراق للصولى ، تحقيق هيورث ، دار المسيرة ، بيروت (١٩٨٣) ص١٠١ .

(٦) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ٢، ص٣٧٢ .

(٧) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ١،ص٢٧٧ .

(٨) التنوخى : المصدر نفسه ، نفس الجزء والصفحة ، الأزدى : حكاية أبو القاسم ، ص٨٩ .

(٩) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٧،ص٨٣ .

(١٠) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ٤، ص٨٢ .

ولم يقتصر تملك الجوارى المغنيات على الأمراء فقط بل امتد أيضا إلى الأعيان ووجوه الدولة ، فقد كان أبو الفضل الشيرازى وزير معز الدولة لا يسمع عن مغنية تنزل إلى السوق إلا اشتراها (١) ، وكان للوزير ابن العميد وزير عضد الدولة ، عدد وفير من المغنيات ، حتى أنه اشترى زبزبا (٢) على شاطئ دجلة خصصه فقط لسماع مغنياته (٣) كذلك اشتهر مجلس التاجر أبى على بن جمهور وكان من كبار تجار بغداد وأعيانها بجاريته المغنية زاد مهر التى فتنت بغداد بصوتها (٤) ، وكان مجلس أبى سليمان المنطقى وهو أحد كبار علماء بغداد غاصا بعلية القوم الذين كانوا يغشون مجلسه لسماع جاريته علم ، وكان العالم والمفكر أبى حيان التوحيدى (ت٤١٥هـ/١٠٢٤م) يحضر مجلسه خصيصا لسماع غناء علم (٥) .

كذلك كان لأحد خدم الخليفة المقتدى ويدعى عفيف الخادم عدة جوارى مغنيات منهن باغى واختيار (٦) كما اشتهرت فى عهد الخليفة المستضئ المغنية عتب بنت عبد الله (ت٦٠٠هـ/١٢٠٣م) ، وكانت إحدى جوارى عمال الخليفة ثم اشترتها العباسة إحدى جهات الخليفة المستضئ بعشرة آلاف دينار وهو مبلغ ضخم وقد حاولت بنفشا حظية المستضئ شراءها بنفس الثمن فرفضت العباسة (٧) .

وفى عهد الخليفة الناصر ذاع صيت جاريتين مغنيتين كانتا مضرب الأمثال فى حسن الصوت ، وقد دارت بينهما منافسة كبيرة على الاستئثار بالشهرة ، وهما نويس المغنية (٨) وعائشة السوداء (٩) ، كذلك عرف مجاهد الدين خالص خادم أم الخليفة الناصر بحبه للغناء ، وقد اقتنى وحده نحوا من عشرين جارية مغنية ثمن الواحدة منهن ألف دينار (١٠) .

---

(١) التنوخى : المصدر نفسه ، جـ ٤، ص٩٨ .

(٢) الزبزب : ضرب من السفن العراقية المتوسطة الحجم ، درويش النخيلى ، السفن الإسلامية ، ص٥٤ .

(٣) مسكويه : تجارب الأمم ، جـ٢،ص٣٥٢ .

(٤) الأزدى : حكاية أبو القاسم ، ص٧١ ؛ الخالديان : التحف والهدايا ، تحقيق سامى الدهان ، منشورات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة (د.ت) ص١١٨ .

(٥) أبوحيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ، جـ١،ص٤٢ .

(٦) ابن النجار : ذيل تاريخ بغداد ، جـ٢،ص٢٨٤ .

(٧) ابن الساعى : الجامع المختصر ، ص١٣٥ .

(٨) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص٨٨ .

(٩) المصدر نفسه ، ص٨٩ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص٨٠ .

وكانت حالة هؤلاء المغنيات غاية فى الرفاهية ، فقد امتلكن بدورهن الجوارى والقصور [١] فعلى سبيل المثال كانت سريرة الرائقية عندما تذهب إلى أحد القصور للغناء فيه كان غلمانها يسبقونها إلى المكان لتنظيفه وإصلاحه قبل أن تجلس للغناء فيه [٢] وهو الأمر الذى يثبت أنه برغم أنها كانت جارية فإنها كانت تملك أيضا الجوارى والغلمان وكان الوزير محمد بن بقية عندما تطربه إحدى مغنياته يهبها " حقة " أى صندوقا من الحلى [٣] .

أما الطائفة الثانية من المغنيات فهن مغنيات الأحياء الشعبية ، وهن طائفة من الجوارى المغنيات الأرق حالا من مثيلاتهن من المغنيات فى القصور ، وكان سادتهن يستثمروهن فى الغناء فى المجالس أمام الناس نظير ما يتحصل ممن يريد سماع هذه المغنية ، وبالرغم من ذلك فقد اشتهرت بعض هؤلاء المغنيات وذاع صيتهن ، ونلن شهرة واسعة [٤] كما كانت مجالس بعض هؤلاء المغنيات مقصورة على الصفوة ، حيث كان حرسهن يمنع العامة من الدخول لأنفة الصفوة من مجالسة العامة فى مجلس واحد وقد ذكر أبو حيان التوحيدى أنه لم يستطع دخول بعض مجالس مغنيات بغداد " لعزة بعضهن وحرسه ورقبائه " [٥] .

وطبقا لوصف أبى حيان التوحيدى كان مجلس المغنية ترف لا يغشاه إلا النبلاء [٦] واشتهرت أيضا مجالس المغنية علوة ، ومجلس المغنية علية ، وفتوة القيصرية ، وسندس ، وأقحوان [٧] ومجلس المغنية درة البصرية التى بلغ من ندرة مجالسها أنها كانت لا تقعد للغناء إلا فى رجب من كل عام [٨] وطبقا لإحصاء أبى حيان الذى قام بإحصاء مجالس المغنيات بحى الكرخ وحده – الذى كان يقع غربى بغداد – فوجدهن أكثر من خمسمائة وثمانون مغنية ، منهن أربعمائة وستين (٤٦٠) من الجوارى ، ومائة وعشرين (١٢٠) حرة [٩] وهو الأمر الذى يدل على مدى انتشار مجالس هؤلاء الجوارى المغنيات بين العامة فى بغداد ، الذين كانوا يحرصون على حضور هذه المجالس .

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٦،ص٩٢ .
(٢) التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ٢،ص٦٦ .
(٣) الصفدى : الوافى ، جـ١، ص١٠٠ .
(٤) ابن الساعى : الجامع المختصر ، ص١٩٩ .
(٥) الإمتاع ، جـ٢،ص١٨٣ .
(٦) المصدر نفسه ، جـ٢، ص١٧٠ .
(٧) الأزدى : حكاية أبو القاسم ، ص ص ٨٥-٦-٨٦ .
(٨) المصدر نفسه ، جـ٢،ص١٦٥ .
(٩) المصدر نفسه ، جـ٢،ص١٨٥ .

وتأتى الجوارى السذج [١] وهن جوارى الخدمة اللائى لم يكن يجدن شيئا سوى أعمال الخدمة المنزلية فى نهاية أنواع الجوارى من الناحية الاجتماعية فكان سعر الواحدة منهن لا يزيد عن العشرين دينارا [٢] ويتحدث ابن بطلان عن تفضيل أهل العراق شراء الجوارى الزنجيات والنوبيات للخدمة المنزلية بفضل حرصهن على النظافة ، والحواضن والدايات للأطفال كانوا يفضلونهم من الجوارى البربريات والطباخات والخازنات من الروميات لشدة أمانتهن [٣] وكان يحرم على هؤلاء الجوارى التشبه بالحرائر فى الملبس فكن يمنعن من ارتداء الخمار وسائر أغطية الرأس وغيرها من أزياء الحرائر ويمشين فى الشوارع سافرات حتى يعرفن بأنهن جوارى ، وكان من واجب المحتسب أن يعاقب الجارية التى تغطى وجهها أو شعرها تشبها بالحرائر [٤] .

أما الصنف الأخير من أصناف الجوارى فهن القيان ، والقينة فى اللغة هى الجارية المغنية إلا لفظة القيان قد أطلقت علما على الجوارى اللائى كن يحترفن العمل فى الحانات والمواخير [٢] وقد لعب هؤلاء القيان دورا كبيرا فى انهيار الأخلاق فى المجتمع العراقى ، فقد شاع لدى أصحاب الحانات والمواخير والفنادق والخانات شراء أعداد كبيرة من هؤلاء القيان لتقديمهن للنزلاء مقابل أجر ، وقد مثل عصر عضد الدولة نقطة تحول بارزة بالنسبة لإضفاء الشرعية على استخدام القينات فى تلك الممارسات المحرمة ، إذ حاول عضد الدولة استغلال دخل البغاء كمورد من موارد الدولة المالية ، لذا فقد سمح لهؤلاء الجوارى بممارسة هذا النشاط

---

(١) الساذج لفظة فارسية تعنى الشئ البسيط الذى لا تعقيد فيه ، أو اللون السائد الذى لا نقش فيه ، آدى شير : الألفاظ الفارسية ، ص٨٨ ، وقد أطلق النخاسون ذلك المصطلح على الجوارى اللائى لا يصلحن إلا للخدمة فى المنازل فلا يجدن الغناء أو أى لون من ألوان الأدب ، وبالتالى كان ثمنها أقل كثيرا من الجارية المغنية .

(٢) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، ص٢٩٩ .

(٣) ابن بطلان : المصدر السابق ، ص٣٨٧ .

(٤) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، القاهرة (١٩٤٦) ص١١١ .

(٥) من غير المعروف بالضبط اشتقاق كلمة قينة فى اللغة العربية ويعتقد أن الأصل الذى انحدرت منه هو لفظة فارسية هى " القين " بمعنى الحداد ثم أطلقت علما على كل صانع أو صاحب مهنة ، انظر المعجم الوجيز ، مادة قين ، ص ٥٢٣ ، ولعل هذا التماثل فى المعنى بين كلمتى " القينة " بمعنى المغنية التى تحترف الغناء وبين " القينة " وهى الجارية التى تحترف البغاء هو الذى دفع العرب إلى اشتقاق لفظة " الغانية " أى المرأة التى تحترف البغى من لفظة " المغنية " التى تحترف الغناء برغم بعد المعنى بين كل من اللفظتين .

تحت حماية الدولة ، مقابل تأدية ضريبة عرفت بارتفاع دور القحاب أو ارتفاع المواخير [1] وقد انتشرت تلك المواخير والحانات ببغداد وبأنحاء العراق وكان أغلبها متركزا على الشاطئ الغربى لدجلة [2] كما انتشرت الحانات الكبيرة بأنحاء العراق المختلفة ، فظهرت فى بجيلة حانة كبيرة [3] كذلك كان فى مدينة عانة حانة أخرى [4] كما كان فى عكبرا جنوبى بغداد حانة كبيرة كان يرتادها علية القوم [5] .

وقد أدت زيادة أعداد هؤلاء الجوارى من القيان إلى ازدياد الحانات فى أنحاء العراق وهو الأمر الذى أدى إلى ازدياد أهمية الضرائب التى تجبى منها زيادة مفرطة ، مما أدى إلى ارتباط هذه الضريبة بعطاء الجيش الذى كان يستنزف معظم موارد الدولة الأخرى [6] وقد قدر ابن الجوزى ارتفاع المواخير التى كانت تجبى فقط من المواخير الشاطئية على الشاطئ الغربى من دجلة فقط بألف وثمانمائة دينار يوميا [7] ، وقد استمرت تلك الضريبة تجبى من تلك المواخير طوال عصر الدولة البويهية وعندما دخل السلاجقة بغداد أدخل السلطان طغرلبك تعديلا كبيرا على هذه الحانات إذ اعتبر هذه الحانات إقطاعا سلطانيا يدخل ضمن أملاك السلطان ، وكان من المعتاد أن يمنح السلطان حق الانتفاع بهذه الدور إلى صاحب الشحنة لتدبير نفقات الحامية السلجوقية ببغداد [8] .

وقد ظلت تلك الحانات مزدهرة بالعراق إلى أن استطاع الخليفة المقتدى الذى عمل على اكتساب ثقة الرعية بالقيام بعدة خطوات إصلاحية فى مستهل خلافته ٤٦٩هـ/١٠٧٦م لذا فقد اصدر مرسوما إلى سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد بهدم الحانات والمواخير مقابل أن يعوضه عنها من ماله الخاص بألف دينار ، لكن صاحب الشحنة رفض عرض الخليفة ورد

---

(١) يقول البيرونى أن عضد الدولة استوحى فكرة استخدام القينات فى تنمية موارد الدولة مما كان يفعله ملوك الهند الذين كانوا يأخذون ضريبة على البغى ، تحقيق ما فى الهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، حيدر آباد الدكن ، (١٩٥٨) ص٤٧٢ .

(٢) الأزدى : حكاية أبو القاسم ، ص٢٣ .

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٥،ص٢٠ .

(٤) صور الفنان المسلم هذه الحانة فى إحدى منمنمات مخطوط مقامات الحريرى انظر الملاحق ، ملحق ٧/٥

(٥) وكان الصاحب بن عباد وزير عضد الدولة يرتاد هذه الحانة ، وألف فيها الكثير من أشعاره ، أنظرها فى الثعالبى : يتيمة الدهر جـ٢، ص٢٠٧ وما بعدها .

(٦) البيرونى : المصدر نفسه ، ص٤٧٢ ؛ عباس العزاوى : تاريخ الضرائب العراقية ، من صدر الإسلام حتى العصر العثمانى ، بغداد (١٩٧٠) ص٢٦ .

(٧) المنتظم ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٨) المصدر نفسه ، جـ٨ ، ص٧٨ .

على الخليفة بقوله " هذه يتحصل منها ألف وثمانمائة دينار " [١] وانتهى الأمر بتوسط الوزير نظام الملك ليدفع الفارق من عنده ، وبذلك تمكن الخليفة المقتدى لأول مرة من مطاردة هؤلاء القيان فأمر فى العام نفسه " بنفيهن إلى الجانب الغربى من بغداد بعد تشهيرهن على ظهور الحمير وهن ينادين على أنفسهن بالفضيحة " [٢] .

ومن الملاحظ أن هؤلاء القيان استطعن معاودة نشاطهن ببناء عدة حانات أخرى بالجانب الغربى حيث تم نفيهن ، مما حث الخليفة المقتدى على إصدار مرسوم جديد ٤٧٩هـ/١٠٨٦م بهدم هذه الحانات وطرد هؤلاء القيان خارج بغداد هذه المرة [٣] ، وقد عادت الحانات مرة أخرى للانتعاش فى شحنكية بهروز الخادم الذى أعاد فرض الضريبة نفسها على هذه الحانات [٤] وقد استمرت هذه الحانات مزدهرة ببغداد فى نهاية القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى فقد لفتت كثرتها نظر الرحالة المغربى الوهرانى (زار بغداد عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م) [٥] مما حدا بكل من الخليفة المستنجد ثم ابنه المستضئ إلى تضييق الخناق على هؤلاء القيان والأمر بطردهم خارج بغداد [٦] حتى أصدر الخليفة الناصر منشوره عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م بحبس النسوة المفسدات بدلا من نفيهن [٧] .

ويتجلى مما سبق القول بأن شيوع ظاهرة اقتناء الجوارى فى المجتمع قد أدت إلى نتائج سلبية على الصعيد الاجتماعى إذ يمكن أن يلاحظ الباحث فى الأحوال الاجتماعية لذلك العصر بوضوح تأثير عادة التسرى بالجوارى فى الإضرار بمعدلات الزواج فقد نشأ تفضيل الرجال للسرية عن الزوجة لأسباب عديدة إذ أن شراء الجارية كان أسهل من الزواج بنفقاته وأعبائه المتعددة ، فلم يكن ثمن الجارية يزيد عن عشرين دينارا فى أحسن الأحوال كما كان التخلص من الجارية ببيعها أسهل كثيرا من الطلاق وما يترتب عليه من آثار اجتماعية ومالية ، وبصفة عامة يلخص ابن الجوزى الطرح السابق بقوله فى إحدى مواعظه للشباب بقوله " إن وجد منكم من نازعه الشوق إلى النكاح فليتخير السرارى (جمع سرية أى الجارية) ، فإن الحرائر

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، جـ٨ ، ص٤٨١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١٠،ص٢٣١ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٣،ص٢٥٢ ؛ مجهول : قطعة من التاريخ ، ورقة ١ ب .

(٣) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، جـ٩،ص٢٦ .

(٤) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، جـ١٠،ص١١٧ .

(٥) المقامات ، ص٥٦ .

(٦) الدميرى : حياة الحيوان ، ص١٤١ .

(٧) الخزرجي : العسجد المسبوك ، ورقة ١٩٢أ ؛ ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص٢٣١ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص٤٧٦ .

غل (أى قيد) وليعزل [1] عن المملوكات إلى أن يجرب خلقهن ودينهن فإن رضيهن طلب منهن الولد ، وإلا فالاستبدال بهن سهل ، ولا يتزوج حرة إلا أن يعلم أنها تصبر على التزوج عليها والتسرى " [2] .

ومن ثم أدى ذلك إلى بقاء أعداد كبيرة من النساء الحرائر بدون زواج ، نتيجة إقبال الرجال المتزايد على شراء الجوارى وتفضيلهم للتسرى عن الزواج بامرأة حرة ، وبالتالى فقد انتشرت أنواع عديدة من الزواج غير القائم على عنصر الاستمرارية والاستقرار الاجتماعى مثل زواج المسيار والزواج المؤقت وغيره ونستطيع أن نلمس ذلك الأثر للتسرى بوضوح إذ يتحدث ابن الجوزى عن أن أهل بغداد فى عصره لم يكونوا يرون غضاضة ولا حرجا فى تزويج بناتهم للغلمان الأتراك أو للمغتربين [3] كذلك أدت بقاء أعداد كبيرة من النساء بدون زواج إلى شيوع العديد من الأمراض والآفات الاجتماعية ، ويتحدث المؤرخ النصرانى عمرو بن متى المعروف بصليبا (عاش فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى) أنه قد شاع بين النصارى فى عصره التشبه بالمسلمين فى التسرى بالجوارى وذلك – رغم تحريم المسيحية القاطع لأى علاقة بين الرجل والمرأة خارج نطاق الزوجة الواحدة أو الزواج الأحادى – حتى أن بعض النصارى كانوا يلجئون للتسرى طلبا للولد وبخاصة من كانت زوجته مصابة بالعقم إذ لم يكن النصرانى يستطيع طلاقها أو حتى الزواج عليها " فيشتري الجارية للإنجاب فإذا أنجبت اخذ منها الولد وألحقه بأهله ، ثم يسترضى الجارية بالمال ويعتقها " [4] .

وهكذا نستطيع أن نخلص إلى أن الإسراف الذى شهده المجتمع العراقى فى التسرى بالجوارى قد ألحق ضررا بالغا بالأسرة التى تشكل نواة المجتمع فضعفت فرص الحرائر فى الزواج أمام ازدياد إقبال الرجال على التسرى بالجوارى وضعفت معدلات الزواج تبعا لذلك ، إضافة لذلك انتشرت نتيجة كثرة الجوارى بعض الآفات الاجتماعية المتمثلة فى انتشار الحانات ومجالس اللهو والمجون ومن ثم شيوع التدهور الأخلاقى بين فئات المجتمع إلا أن هذا لا يمنع من القول أيضا بأنه كان هناك أثرا إيجابيا لهؤلاء الجوارى وبخاصة المغنيات والأديبات منهن واللائى شاركن فى نهضة الآداب والفنون فى عصرهن مشاركة كبرى كما سنتناول بالتفصيل فيما بعد .

---

(1) العزل فى اللغة هو الفصل والإبعاد ، وعزل الرجل عن المرأة أى لم يرد الولد منها ، ابن منظور : لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة (د.ت) جـ٤ ، ص٢٣٩٠ .

(2) صيد الخاطر ، ص٢٠٩

(3) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، ص٢٦٩ .

(4) عمرو بن متى المعروف بصليبا : أخبار بطارقة كرسى المشرق ، جزء من كتاب المجدل الكبير ، تحقيق جيسموندى ، روما (١٨٩٦) ص١٣٣ .

(٣) المرأة ومَظَاهر الحيَاة الاجتماعية

أشارت بعض الدراسات التى تناولت دراسة الحياة الاجتماعية خلال العصر العبَّاسى الثانى إلى نمط من أنماط السلوك الاجتماعى تجاه المرأة فى ذلك العصر وهو عزلها وراء جدران بيتها ، فلم يكن يُسمح لها بالخروج والاختلاط بالرجال – وذلك على النقيض مما حظيت به مثيلتها فى العصور الإسلامية الأولى من حرية واسعة – ويبدو أن هذا الرَأى قد نبع أساساً من خلال تناول تلك الدراسات بشكل مُتعجل لما ورد فى كتب الحِسْبَة [(١)] التى تناولت تنظيم المُحتَسب لسلُوك النساء الاجتماعى إذ ساد الاعتقاد بأنه كان من أخص واجبات المُحتسب أن يَمنع وقوف الرجال مع النساء فى الطُرقات والشوارع والأسوَاق [(٢)] .

وعلى العكس تماماً فيتجلى عند دراسة كتب الحسبة أن واجب المُحتسب كان مراقبة سلوك النساء والرجال فى الشوارع والأسواق ، فلم يكن هنالك غَضَاضة فى أن تقف المرأة لتُحادث رجلا فى الطريق [(٣)] ، ومن هذا يتضح أن واجب المُحتسب كان الرقابة والمُحافظة على الآداب العامة ، يقول الشَيْزَرى " ولا تقف امرأة مع رجل أجنبى عنها فى موضع خُلوة من الناس فإن هذا أشد للتُهمة فى حقها " [(٤)] ، كذلك كان من واجب المحتسب منع النساء من الجلوس على أعتاب بيوتهن فى طريق سير الرجال لما نهى عنه الرسُولﷺ من الجلوس

---

(١) الحِسبة فقهيا هى الأمر بالمعروف والنهى عن المُنكر ، ويقوم المُحتسب بهذه المُهمة عن طريق المُحافظة على الآداب العامة ومُراقبة الأسواق لمنع الغش والتلاعب ومحاربة المنكرات والبدع والمفاسد يقول الشيزرى " لما كانت الحسبة أمر بمعروف ونهياً عن منكر وإصلاحا بين الناس وجب على المُحتسب أن يكون عارفاً بأحكام الشريعة ليعلم ما يَأذن به ويَنهى عنه " الشَيزرى : نهاية الرُتبة فى طلب الحسبة ، ص ٦ ؛ ابن الأُخوة : معالم القربة فى أحكام الحسبة ، تحقيق روبن ليفى ، كمبردج (١٩٣٨) ص١٥ .

(٢) انظر هذا الرأى فى :– ريسلر : الحضارة العربية ص٥٩ ؛ فيليب حتى : مُوجز تاريخ العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت (١٩٤٦) ص٢٣ ؛ عبد الحميد العبادى (وآخرون) الدولة الآداب تاريخها وحضارتها ، منشورات المجلس الدائم للخدمات العامة ، القاهرة (١٩٥٥) ص٤٨ ؛ جوستاف جرونباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٩٩٧) ص٢٢٥ ؛ سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة عفيف البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت (١٩٦١) ص٤٨٠ ، ومن الملاحظ أن الأستاذ سيد أمير على يخرج علينا برأى غريب دون أن يؤيده بأى دليل بأن الفصل بين الجنسين قد أصبح تاما منذ عصر الخليفة القادر بالله .

(٣) يقول ابن الأُخوة " إذا رأى (أى المُحتسب) وقفة رجل مع امرأة بطريق سابل ولم تظهر منهما إمارات الريب لم يتعرض عليهما بزجر ولا إنكار فما يجد الناس بداً من هذا ، وإن كانت الوقفة فى طريق خال بمكان ريبة فينكر على هؤلاء ولا يعجل فى التأديب "معالم القربة ، ص ٣٠ .

(٤) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العرينى ، مطبوعات لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة (١٩٤٦) ص١٤ .

بالطرقات فى طريق المُسلمين [١] وكان المُحتسب أيضا يمنع تعرض الرجال للنساء بـالأذى بالطُرقات والشوارع والأسواق فمن وقف من الشباب فى طريقهن لغير حاجة عاقبه المُحتسب ، يقول الشَيزرى " فإن رأى (أى المحتسب) رجلا يقف أمامهن ويُكلمهن فى غير مُعاملة البيع والشراء عاقبه فإن كثيرا من الشبان المُفسدين يقفون فى هذه المواضع ليس لهم حاجة سوى التلاعب على النسوان " [٢] .

وهكذا فإننا نستنتج أن واجبات المُحتسب كانت تتعلق أساسا بمحاولة تحقيق نوع من الحماية والمحافظة على القيم والآداب العامة لذا لا يمكن القول بأن هذه الواجبات التى كان المُحتسب أن يسعى إلى تطبيقها قد مثلت قيدا على حُرية المرأة فى التنقل والخروج ومُمارسة سائر أنماط الأنشطة الاجتماعية ، فلم يكن المُحتسب يُعاقب امرأة تخرج من بيتها للعمل أو للتسوق أو الصلاة وحضور مجالس العلم فى المساجد والمدارس أو حتى للنزهة وغيرها من أنواع الأنشطة الاجتماعية ، وإنما كان من واجب المُحتسب فقط مراقبة السلوك الاجتماعى للنساء والرجال فى الشوارع والأسواق والأماكن العامة بما يحقق هدف الحسبة وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المُنكر .

هذا على الصعيد النظرى أما على صعيد الممارسات الاجتماعية الفعلية فقد سجلت لنا الآثار التى وصلت إلينا من ذلك العصر وبخاصة المنمنمات المصورة على أغلفة المخطوطات مشاركة المرأة الفعالة فى كافة الأنشطة الاجتماعية والتى تصور لنا تواجد النساء جنباً إلى جنب مع الرجال فى الأسواق والمتاجر [٣] والحقول [٤] وفى حلقات العلم فى المساجد والمدارس [٥] وغيرها من ألوان النشاط الاجتماعى الإنسانى بشكل واضح وصريح ويتضح منه أنه لم تكن هناك أية قُيود على نشاط المرأة على الصعيد الاجتماعى بل ويتضح منها مدى الحرية التى حصلت عليها المرأة فى ذلك العصر حتى أن السُلطة عندما كانت ترى بعض الغَضَاضة على سلوك النساء كانت تتدخل بإصدار الأوامر والمراسيم التى تكفل علاج بعض السلبيات فيما يختص بتهذيب السلوك الاجتماعى .

---

[١] المصدر نفسه ، نفس الصفحة .

[٢] المصدر نفسه ، ص١١٢ .

[٣] نظر الملاحق ، ملحق ٥/٥ .

[٤] نظر الملاحق ، ملحق ٥/١٤ .

[٥] نظر الملاحق ، ملحق ٥/١٥ .

يتضح ذلك فى ضوء ظاهرة ولع نساء بغداد بالخروج للفُرجة بالجانب الغربى من دجلة ، حيث دأبت أعداد غفيرة من النساء على العُبور إلى الجانب الغربى الذى كان متنفس أهل بغداد ببساتينه الممتدة وقصوره الشاطئية الفخمة [١] وقد انتشرت هذه الظاهرة بين مُختلف الطبقات الاجتماعية يقول ابن الكَازرونى " يهرع الناس إلى الفُرجة بالجانب الغربى ما بين فتى قد فُتن بحسن فتاة يرتعون فى الجانب الغربى بين ماش ومُمتط صهوة جواد عربى " [٢] وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار الرحالة المغربى ابن جُبير (زار بغداد عام ٥٨١هـ/١١٨٥م) الذى اندهش من كثرة النساء ممن يعبرن نهر دجلة كل يوم صباحاً ومساءً بغرض النزهة [٣] هذا فضلا عن ولع النساء بالمشاركة فى المناسبات والاحتفالات العامة ، فقد شاركت أعداد كبيرة من النساء فى الاحتفال بانتهاء فتنة البسَاسيرى ٤٥٢هـ/١٠٦٠م فأخذن فى الطواف والغناء والضرب بالدُف فى شوارع بغداد [٤] ويذكر ابن الجَوزى أنه عند دخول السُلطان بُركياروق بغداد احتشد العامة وكان أكثرهم من النساء والصبيان [٥] ولم يفت الفنان المسلم فى العراق تسجيل ولع النساء البغداديات بالخروج لمشاهدة المواكب فيسجل المصور الفذ يحيى بن محمود الواسطى (عاش فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) على متن إحدى مُنَمنماته بمخطوط مقَامات الحريرى المؤرخ بسنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م عادة جلوس الخليفة برَوْشَن (شُرْفة) دار الخلافة لتحية العامة واحتشاد النسوة لرؤية الخليفة ومُزاحمتهن للرجال جنباً إلى جنب [٦] .

ويمكن القول بأن اختلاط الرجال بالنساء فى تلك الاحتفالات قد تسبب فى ظهور بعض المثالب الاجتماعية مثل انتشار مظاهر اللهو والمُجون أثناء تلك المناسبات وقد أثار هذا حفيظة رجال الدين حيث دأبوا على الشكوى من تلك الاحتفالات وما كان يجرى فيها من العبث وشتى مظاهر اللهو ، فكتب الحنابلة كتابا إلى الوزير فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة المستظهر

---

(١) الهمذانى : مقامات الهمذانى ، تحقيق محمد محمود الرافعى ، المكتبة المحمودية ، الطبعة الثانية ، القاهرة (د.ت) ص٦٢ .

(٢) ابن الكازرونى : مقامة فى قواعد بغداد ، ص ٢٦ .

(٣) الرحلة ، ص٢٠١ ؛

Levy : The Social Structure Of Islam ,Cambridge University Press , London (1961) p131 .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨،ص٢١١ .

(٥) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، جـ٩، ص١٢ .

(٦) انظر الملاحق ، ملحق ٦/٥ .

ينتقدون فيه سكوته على ما وصفوه بسواد الطبل وكشف عورات النساء بحضور الرجال فى هذه الاحتفالات ، ووصف الحنابلة هذه المناسبات وما يجرى فيها بالزنا الظاهر [1] وقد تكررت نفس الظاهرة عندما احتفل السلطان مسعُود بميلاد ولد له فى بغداد عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م حيث ظهرت " المُنكرات من النساء " فى هذا الاحتفال إلى درجة جعلت أحد الزهاد يتوجه إلى صاحب الشحنة ليقول له " إن أزلتم هذا وإلا بتنا فى المساجد نشتكى إلى الله " [2] .

وكانت تلك الاعتراضات مقدمة لبعض المراسيم الإصلاحية والتى أريد بها تهذيب هذه السلوكيات الاجتماعية ، والحقيقة أن هذه المراسيم لم تتعسف لدرجة منع النساء من عبور دجلة للنزهة اللهم إذا استثنينا منها مرسوم الخليفة المُستظهر كما سيأتى وإنما اهتمت فقط بتنظيم تلك العادة بما يحقق عدم تعرض النساء للمُضايقات من جهة وحثهن على الالتزام بالآداب العامة من جهة أخرى ، يتجلى ذلك فى مرسوم الخليفة المقتدى الذى أصدره إلى المُحتسب عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م يأمره فيه بمنع الملاَّحين من حمل الرجال والنساء مختلطين فى نفس القارب وأن يخصص الملاحون قوارب خاصة لنقل النساء [3] ويبدو أن مرسوم الخليفة لم يكن يُراعى تمام المُراعاة فقد ظل الملاحون يحملون الرجال والنساء مجتمعين مما أدى إلى أن يصدر بَهرُوز الخادم شحنة بغداد فى عهد الخليفة المُستظهر عام ٤٩٨هـ/١٠٧٦م أمرا يُجدد فيه التشديد على الملاحين فى الالتزام بمرسوم الخليفة المُقتدى بضرورة فصل النساء عن الرجال أثناء العبور فى القوارب للنزهة [4] ، على حين اضطر الخليفة المستظهر عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م إلى إصدار مرسوم يمنع فيه النساء من ترك بيوتهن ليلا وعبور نهر دجلة إلى الجانب الغربى [5] .

ويعد مرسوم الخليفة المستظهر آخر مرسوم فيما يتعلق بمحاولة السُلطة الحد من هذه الظاهرة التى تحولت إلى عادة اجتماعية تفشت فى المجتمع بحيث لم تعد تنال الكثير من الاهتمام يتجلى ذلك فى مشاركة الخليفة الناصر بنفسه وبصحبة حاشيته عام ٥٨٠هـ/١١٨٤م مع جموع الرجال والنساء فى الجانب الغربى من دجلة فى الاحتفال برسوم يوم دفن العيد الذى

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩،ص٨٦ ؛ ابن رجب : الذيل على طبقات الحنابلة ، جـ١،ص١٤٧ ، راجع أيضا نص هذا الخطاب بالملاحق ، ملحق ١٤/٣ .

(٢) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، جـ١٠ ،ص٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ، جـ٨،ص٢٩٣ .

(٤) المصدر نفسه ، جـ١٠، ص١١٧ .

(٥) المصدر نفسه ، جـ٨،ص٢٩٣ .

كان يوافق اليوم السابع بعد انقضاء العيدين ، حيث كان من المعتاد أن يتوافد الناس رجالا ونساء على الجانب الغربى لدجلة ، ويتم الاحتفال برسم دفن العيد بما يشبه مسرحية هزلية حيث يحضر الرجال شخصا معتوها ويتظاهرون بأنه العيد ويجردونه من ملابسه ويكفنونه كهيئة الميت ويتظاهرون بأخذ العزاء فيه بينما تقوم النساء باللطم والنَوح عليه [1] ، بل إن الخليفة الناصر أمر بتخصيص أحد بساتينه فى الجانب الغربى للاحتفال برسم دفن العيد [2] .

من جهة أخرى لعبت السُلطة دوراً كبيرا فى تشجيع بعض العادات النسائية المُتبعة فى بعض الاحتفالات الدينية وبخاصة احتفال نساء الشيعة بيوم عاشوراء أو ذكرى استشهاد الإمام الحسين بن على بن أبى طالب بكربلاء حيث كان دخول البُويهيين بغداد إيذاناً ببدء عصر جديد فى العراق تميز بسيطرة المذهب الشيعى على كافة مقدرات الحياة فى المجتمع العراقى طوال ما يزيد على قرن من الزمان ومن تلك التغيرات الملحوظة إطلاق الدولة البُويهية العنان للنائحات من نساء الشيعة فى إحياء ذكرى يوم عاشوراء .

وقد عملت السلطة على استخدام طائفة من النساء الشيعة واللائى عرفن باسم النائحات كمظهر من مظاهر تأكيد هيبة وسيادة الحكم البُويهى الشيعى ، ومن الملاحظ أن المصادر المعاصرة قد استفاضت فى رسم صورة كاملة لطقوس هؤلاء النسوة فى ذلك الاحتفال والتى كانت تسبب عادة فى العديد من الفتن بين السنة والشيعة بسبب اعتبار أهل السنة لهذه الطقوس بدع وأمور خارجة عن الإسلام ، حيث كانت تقتضى سير النائحات من نساء الشيعة وهن يرتدين المُسوح وينثُرن الرماد على الطريق من حى الكَرخ معقل الشيعة ببغداد إلى الحائر حيث ضريح الإمام الحُسين [3] وكن أثناء الطريق ينشدن الأشعار والمرَاثى ويأخذن فى لعن الصحابة وبخاصة أبى بكر وعمر وعثمان والسيدة عائشة ويسرفن فى النوح واللطم والندب وشق الجيوب وتقطيع الثياب ، ونشر الشعور وتصخيم الوجوه بالطين [4] .

وقبل دخول البُويهيين بغداد كانت نائحات الشيعة لا يجرُؤن على إحياء ذكرى عاشوراء ويتحدث القاضى التنوخى عن سيدة نائحة تدعى خَلبْ قادت مسيرة لنساء الشيعة فى احتفالات

---

(1) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص١٧٨ .

(2) المصدر نفسه ، ص١٨٨ .

(3) الحائر البقعة التى دفن فيها جسد الإمام الحُسين رضى الله عنه بكربلاء وتحوى مسجده وضريحه ، ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٢ ،ص ٢٤١ . وهى الآن تسمى بالنَجف الأشرف .

(4) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٣،ص٣٤٤ ؛ الذهبى : دول الإسلام ص١٩٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ،ص٨٤ .

عاشوراء عام ٣٢٩هـ/٩٤٠م [١] ، وقد بلغ من تأثير نواح هذه السيدة على الحُسين أنه كان يثير وجد السنة والشيعة على السواء وكانت مراثيها فى الحُسين بصفة خاصة وآل البيت بصفة عامة تتردد على لسان العام والخاص وهو الأمر الذى اضطر معه الشيخ أبى على البربهارى مُقدّم الحنابلة ببغداد إلى إصدار فتوى بإهدار دم هذه السيدة مما اضطرها إلى الهرب من بغداد [٢] .

وبالرغم من دخول مُعز الدولة بغداد عام ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م فقد تأخر إذنه لنائحات الشيعة بإحياء ذكرى عاشوراء حتى عام ٣٥١هـ/٩٦٢م وهو الأمر الذى يمكن تفسيره بخشية معز الدولة فى أول الأمر من إطلاق العنان لنساء الشيعة فى إحياء ذكرى عاشوراء تجنباً للصدام بينه وبين السنة إذ لم يكن بعد قد تمكن من توطيد أركان مملكته ، وهو الأمر الذى تطلب منه إحداث نوع من التوازن فى علاقته بكل من السنة والشيعة على السواء ، إلا أنه بعد أن قام بتوطيد مركزه السياسى أمر بالإذن لنساء الشيعة بإحياء ذكرى عاشوراء تحت حماية الدولة [٣] ، وكانت كبيرة نائحات الشيعة التى عهد إليها معز الدولة بإحياء احتفالات ذكرى عاشوراء لأول مرة وقيادة النائحات فيها لأول مرة سيدة تدعى سُكَينة أطلق عليها الشيعة لقب كبيرة نائحات الشيعة [٤] .

وقد ظل احتفال نائحات الشيعة بذكرى عاشوراء يتجدد سنويا طيلة عصر الدولة البويهية ، وحتى نهايتها تحت حماية أمراء بنى بُويه برغم ما كان يُسببه ذلك الاحتفال من سخط السنة ، وبخاصة عندما كانت النائحات يتطاولن بالسباب واللعن للسيدة عائشة وكبار الصحابة ، وبدخول السلاجقة بغداد وعودة المذهب السنى ببغداد للازدهار تحت حكم السلاجقة أمر الخليفة القائم بإلغاء احتفالات نائحات الشيعة بذكرى عَاشوراء حيث اصدر مرسوما للشيعة عام ٤٥٨هـ/١٠٦٥م وجاء فيه " هذا أمر قد كان فلا تُعاودوه " [٥] .

---

[١] ومن مراثيها فى الإمام الحسين قولها :-

لم أُمرِّضه فأسلو لا ولا كان مريضا   أيها العينان فيضا واستهلا ولا تغيضا

التنوخى : نشوار المحاضرة ، جـ٢،ص٢٣٣ .

[٢] نفس المصدر ، والجزء والصفحة .

[٣] ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨،ص٣٢٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ٨،ص٥٤٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٦ ،ص١٩٢ .

[٤] الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٣ ، ص٣١ .

[٥] ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٥،ص٧٧ .

ومن الملاحظ أن الشيعة لم يكترثوا لأمر الخليفة القائم بإلغاء طقوس الاحتفال بعاشوراء إذ ظل النائحات يخرجن من آن لآخر للاحتفال بذكرى عاشوراء وكان خروجهن مرتبطا باستمرار بحدوث الفتنة بين السنة - الذين أصبحوا بطبيعة الحال يتمتعون بحماية الدولة - وبين الشيعة [١]، وفى عهد الخليفة الناصر الذى شهد عصره انتعاشة قوية للمذهب الشيعى آلت رياسة نائحات الشيعة إلى سيدة تدعى بنت قَرَايا [٢] وقد قادت هذه النائحة النائحات يوم عاشوراء عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م ، ووصلت بمن معها إلى دار الخلافة وهناك أخذت تسب الخليفة وتُردد " العنوا راكبة الجمل (أى السيدة عائشة) وأخذت تذكر حديث الإفك والنبى ﷺ بأقبح الشناعات [٣] .

على كل حال فإنه يتضح مما سبق أن المُجتمع لم يقم بعزل المرأة عن الحياة الاجتماعية بل على العكس من ذلك تمتعت المرأة بحرية واسعة فيما يتعلق بالمشاركة فى الأنشطة الاجتماعية السائدة فى المجتمع ، فلم يُمارس الرجال ضغوطا من نوع ما لمنع المرأة من الخروج من منزلها بل العكس هو الصحيح إذ ازدادت الضغوط على السُلطة من قبل رجال الدين لوضع التشريعات الخاصة بمنع النساء من الخروج وكان أشد هذه المراسيم هو مرسوم الخليفة المستظهر بمنع خروج النساء من منازلهن ليلا عقب صلاة العشاء الآخرة ، وهو ما يدل دلالة قاطعة على مدى الحُرية التى أحرزتها المرأة آنذاك ومدى مشاركتها فى الأعياد والمناسبات الاجتماعية والدينية المختلفة ، وإن كان ينبغى القول أيضا بأن هذا النشاط من جانب المرأة فى الحياة الاجتماعية قد شابه بعض الشوائب التى تتعلق بما كان يسود هذه التجمعات من شيوع أنواع من اللهو والمجون وقد أحفظ هذا العديد من رجال الدين الذين أخذوا بدورهم بالضغط على حث السلطة على اتخاذ موقف حيال الحد من ظاهرة اختلاط الجنسين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ،ص٥٩٣ .

(٢) على ما يبدو فإن هذه السيدة كانت تنتمى إلى أحد بيوتات الشيعة بالكرخ وكان ذلك البيت شديد التطرف فى العقيدة ، إذ أنه استنادا إلى ما ذكره ابن الجوزى فى سياق أحداث ٥٧٤هـ/١١٧٨م " وفى ليلة الجمعة رابع وعشرين رمضان كُبس حى الكرخ وقبض على رجل يقال له أبو السعادات بن قرايا كان ينشد على الدكاكين فوجدوا عنده كتب كثيرة فيها سب الصحابة فأخذ وقطع لسانه ويده ثم حط إلى الشط ليحمل إلى البيمارستان فجعل يسبح فضربه العوام بالآجر حتى مات ، المنتظم جـ١٠، ص٢٨٥ ؛ وتأسيسا على ذلك فإنه من المرجح بشدة أن يكون أبو السعادات هذا هو والد هذه النائحة خاصة فى ضوء إشارة سبط ابن الجوزى أن هذه النائحة كانت موتورة من الخليفة بسبب أخذ أبيها وقتله ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق١ ، ص٣٨٦ .

(٣) سبط ابن الجوزى : المصدر نفسه ، جـ٨ ،ق١ ، ص٣٨٦ .

(٤) ملابس المرأة

تعد الملابس أحد أبرز أوجه التطور الحضارى للإنسان ، حيث تؤدى الملابس وظائف شتى ، ففضلا عن ستر البدن فإنها تعكس أيضا الكثير عن مرتديها مثل انتماؤه الطبقى والعرقى وعمله ، ومكانته الاجتماعية ، وديانته ، بل وأخلاقه أيضا فى بعض الأحيان ، ومن هنا تأتى أهمية دراسة الملابس تاريخيا ، وقد امتازت ملابس النساء خلال العصر موضع الدراسة بالتنوع سواء فى أشكالها أو فى الخامات التى كانت تصنع منها ، مما يدل على شدة عناية المرأة خلال ذلك العصر بالاعتناء بمظهرها .

وتأتى المقنعة فى مقدمة ملابس الرأس للنساء ، والمقنعة هى قطعة من القماش كانت تغطى الرأس وتترك لتنسدل على الصدر والظهر [1] وترد مقانع النساء فى المصادر فى مقابل الحديث عن عمائم الرجال [2] وكانت نساء الطبقة العليا يفضلن أن يكون نسيج المقنعة من الخز [3] وتأتى المقانع النيسابورية أى تلك المقانع التى كانت تصنع بنيسابور كأفضل أنواع المقانع النسائية التى اشتهرت ببغداد على الإطلاق [4] كذلك اشتهرت سبن وهى إحدى القرى جنوب بغداد بصناعة أنواع جيدة من المقانع الرقاق كانت تعرف بالأسبان وإن لم تكن فى نفس جودة المقانع النيسابورية [5] .

---

[1] صلاح العبيدى : الملابس العربية الإسلامية فى العصر العباسى الثانى ، منشورات وزارة الإعلام ، بغداد (١٩٨٠) ص١٧٣.

[2] السمعانى : الأنساب ، تحقيق عبد الله عمر البارودى ، دار الكتب العلمية ، بيروت (١٩٨٨) جـ٢،ص٣٩٨ ؛ الخطيب العدنانى : الملابس والزينة فى الإسلام ، مؤسسة الانتشار العربى ، بيروت (١٩٩١) ص١٧١ ؛ أبو حيان التوحيدى : أخلاق الوزيرين ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، دار صادر ، بيروت (١٩٩٢) ص٤٥٦ ؛ ابن مارى البصرى : مقامات ابن مارى ، *مجلة المشرق* ، بيروت (١٩٠٠) ص٥٩٦ .

[3] الخز : نوع من أنواع الحرير الفاخر ، الوشاء : الموشى ، ص١٣٦ ؛ الخطيب العدنانى : الملابس ، ص٧٠ ، وقد جاء لأحد الشعراء قوله :

أماطت كساء الخز عن وجهها وأرخت على الخدين بردا مهلهلا

الأصفهانى : الأغانى ، جـ١، ص٣٩٠ .

وجاء لشاعر آخر :

أنعت طارونية الثياب لابسة خزا على الإهاب

الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ٢ ، ص٢٤٢ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٢ ، ص٣١٨ .

[4] الوشاء : المصدر نفسه ، ص١٧٣ .

[5] ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار الكتب العلمية ، بيروت (١٩٩٠) جـ ٣ ، ص١٨٦ .

وترتبط العصابة بالمقنعة ، والعصابة عبارة عن شريط من القماش كانت تلتف حول المقنعة قدر محيط الرأس بغرض تثبيتها (١) ، وفى الغالب كان نساء الطبقة العليا يرصعن عصائبهن بالجواهر والأحجار الكريمة (٢) أما عامة النساء فكن يكتفين بتزيين العصائب بالزخارف المختلفة ، كما شاع بين الجوارى تزيين العصائب ببعض عبارات الغزل الرقيق (٣) ، وتلف العصابة حول المقنعة ويتم ربطها من خلف الرأس بحيث تترك ذوائبها منسدلة على الظهر (٤)

ومن ضمن ملابس الرأس أيضا يأتى البرقع كقطعة مكملة للمقنعة ويتكون البرقع من قطعة من النسيج كانت تثبت على جانبى المقنعة من جهة الأذن ، بغرض تغطية الوجه (٥) وبالرغم من أن الإسلام لم يفرض على المرأة تغطية وجهها بل يستحب تغطية الشعر مع كشف الوجه والكفين لقول الرسول ﷺ لأسماء بنت أبى بكر " يا أسماء إن المرأة إذا بلغت الحيض لم يستحب أن يظهر منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه " (٦) ولم تنتشر عادة حجب المرأة لوجهها فى عصور الإسلام الأولى وإنما أخذت فى الانتشار منذ بدء العصر العباسى يقول الجاحظ " فلم يزل الرجال يتحدثون مع النساء فى الجاهلية والإسلام ... ثم كانت الشرائف يقعدن للرجال للحديث ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعض عارا فى الجاهلية ولا حراما فى الإسلام (٧) ... ثم أن النساء إلى اليوم من بنات الخلفاء وأمهاتهن فمن دونهن يطفن بالبيت مكشوفات الوجوه (٨) والدليل على أن النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة

---

(١) صلاح العبيدى : الملابس العربية ، ص١٦٩ ؛ نجية المناعى : المجتمع البويهى ، ص٤١٩ ؛
Dozy : Dictionnaire Des Nomos Des Vetementes Chez Les Arabes , Amesterdam (1854) p301

(٢) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامي نصيب ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة (١٩٥٠) ص١٣٢ ؛ زكية عمر العلى : حلى إسلامية اقتناها المتحف العراقى ، سومر ، مج ٣٠ ، ق٢ ، بغداد (١٩٧٤) ص٢٥٢ .

(٣) الوشاء : الموشى ، ص ٢٥٦ .

(٤) تظهر العصابة بوضوح فى إحدى منمنمات الواسطى المؤرخة بعام ٦٣٤هـ/١٢٣٦م حيث ترتديها السيدة التى تقف أما القاضى فوق المقنعة ، انظر الملاحق ، ملحق ١٧/٥ ، كما تظهر عدة أنواع من العصائب التى ترتديها الجوارى اللائى يحطن بمجلس إحدى الأميرات على غلاف مخطوط الترياق لجالينوس والمؤرخ بعام ٥٩٦هـ/١١٩٩م ، انظر ملحق ٤/٥ .

(٥) كان البرقع قطعة أساسية من زى العروس ، يقول ابن الجوزى " فعندما دخل طغرلبك على ابنة القائم لم تقم له ولا كشفت برقعها " المنتظم ، جـ٨ ، ص٢٢٩ ، كذلك يظهر طبق من الخزف يمثل موكب إحدى العرائس وهى ترتدى البرقع داخل محفتها . انظر الملاحق ، ملحق ٢/٥ .

(٦) البخارى : صحيح البخارى ، باب اللباس ، جـ٢، ص ٤٢٥ .

(٧) كتاب القيان ، جـ٢،ص ١٤٩ .

(٨) المصدر نفسه ، جـ٢،ص ١٥١ .

المُعنَّسَة تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك [١] فلو كان حراماً وهى شابة لم يَحِل إذا عَنَّسَت ، ولكنه أمر أفرط فيه المُعتدُون من حد الغَيرة إلى سُوء الخُلق وضيق العَطَن فصار عندهم كالحقُ الواجب " [٢] .

وفضلا عن تبرير الجاحظ بأن تعنت الرجال كان سببا رئيسيا فى انتشار عادة حجب المرأة لوجهها فإنه يمكن تبرير عادة انتشار ارتداء النساء للبرقع إلى سبب اجتماعى أيضا فقد كان ارتداء البرقع واجبا على الحرائر لتمييزهن عن الجوارى فى الشوارع والأسواق ومن ثم فقد تمسكت الحرائر بالبرقع كقطعة أساسية من الزى تعبر عن وضعهن الاجتماعى والطبقى ، إذ كان ينبغى على المحتسب أن يعاقب الجارية التى تتشبه بالحرائر بارتداء البرقع إذ كان ينبغى على الجارية أن تمشى فى الشوارع والأسواق سافرة الوجه مكشوفة الشعر ، وبالفعل فإن ما وصلنا من المنمنمات الفنية تصور طبقة الجوارى وهن مكشوفات الوجه والشعر ، على حين تأتى الحرائر مرتديات للبرقع كعلامة على الحرية ونبل الأصل ، ومن هنا يمكن القول بأن تسرب عادة ارتداء النساء للبرقع رغم عدم فرضه دينيا على المرأة فى المجتمعات الإسلامية المختلفة إنما كان سببا اجتماعيا إذ كان البرقع يعبر عن وضع طبقى واجتماعى بالدرجة الأولى .

ويأتى الخمار [٣] كأحد أغطية الرأس وكبديل عن المقنعة ، ويتكون الخمار من قطعة واحدة طويلة من القماش وكان من المعتاد أن يتم ارتداؤه بحيث يغطى الرأس وينسدل متقاطعا تحت الحنك بحيث يرسل الطرف الذى يأتى من الناحية اليمنى إلى جانب الكتف الأيمن وبالعكس ، وكانت أجود أنواع الأخمرة هى الأخمرة المذهبة [٤] وكان الخمار يمثل أكثر أغطية الرأس ملائمة من الناحية العملية ، فكونه قطعة واحدة ، ولا يحتاج ارتداؤه إلى ما يثبته ، إلى جانب سهولة ارتداؤه ، لذا فقد فضلت المرأة ارتداؤه أثناء تأديتها العمل اليومى [٥] .

---

[١] يشير إلى قوله تعالى: " والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم " (النور:٦٠) .

[٢] كتاب القيان ، جـ٢، ص١٥٧ .

[٣] لم يستطع **Dozy** التعرف على ماهية الخمار ، **Dictionnaire, p 171** ، وليس صحيحا ما قالت به صبيحة رشاد رشدى من أن الخمار هو نفسه المقنعة ، الملابس العربية وتطورها فى العهود الإسلامية ، بغداد (١٩٨١) ص٤٣ .

[٤] أبو حيان التوحيدى : أخلاق الوزيرين ، ص٤٥٦ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٤، ص١٦٠ ؛ الحريرى : مقامات الحريرى ، دار صادر ، بيروت (١٩٨٢) ص١١٧ ؛ على إبراهيم حسن : نساء لهن ، ص١٣٢ ؛ **Laen : Arabian , p225**

[٥] يظهر الخمار واضحا فى إحدى منمنمات الواسطى والتى تمثل راعية الإبل ، راجع الملاحق ، ملحق ١١/٥ .

إلى جانب ذلك عرف ضمن أغطية الرأس للنساء القَلَنْسوَة ، والقَلَنْسُوة هى ما يُلاثُ على الرأس تكويراً [١] وكانت تُصنع من النسيج أو الجلد أو الحَرير [٢] ، وقد تلبس المرأة التاج مع القُلنسوة ، ويتكون التاج من قطعة معدنية مستديرة توضع على الرَأس ، وتتفاوت فى قيمتها بحَسب المادة المصنوعة منها ، وفى الغالب يتكون التاج من حنيتين أو ثلاثة و يُحلى التَاج بأنواع مُختلفة من الزخارف كما يظهر على رأس إحدى الأميرات على غلاف مخطوط التِريَاق لجَالينوس [٣] وقد أهدى الخليفة القائم لخديجة خاتون عشية زفافها إليه تاجاً مُرَصَعاً [٤] ، وكان من الشائع أيضاً أن تلبس المرأة العَمَائم مثلها فى ذلك مثل الرجال بحيث تُلف العَمَامة على الرأس مُبَاشرة أو تُحيط بالقُلنسوة [٥] .

أما عن ملابس البَدن فتأتى الغُلاَلَة وهى ثوب رقيق كان يرتدى فوق الثوب السَميك [٦] وكانت الغلالة زياً مُشتركاً بين الرجال والنساء [٧] ويتحدث الوَشَّاء (ت٣٢٥هـ/٩٣٦م) عن نوع من الغَلاَئل النسائية الفاخرة تدعى " الغلائل الدُخانية " [٨] كما يتحدث الأَزْدِى (عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى) عن نوع آخر من الغلائل تدعى "غَلائل جَرى المَاء" [٩] .

ومن ضمن مَلابس البَدن أيضا يأتى السرُوَال [١٠] وهو زى مشترك بين الرجال والنساء مثله فى ذلك مثل الغُلالة ، وهو أشبه ما يكون بالسَراويل التى يرتديها البَدو وبما يرتديه

---

(١) العُبيدى : الملابس العربية ، ص١٣٦ ، وتظهر القُلنسوة فى إحدى مُنمنمات الواسطى والتى تمثل إحدى غزّالة الصوف حيث تظهر القُلنسوة صفراء ومزينة ببقع حمراء انظر الملاحق ، ملحق ١٦/٥ .

(٢) صبيحة رشدى : الملابس العربية ، ص٤٠ ؛ Dozy : op . cit , p370 ، وليس صحيحاً ما ذكره ترتون من أن القُلنسوة كانت إحدى أزياء أهل الذمة ومن ثم كان لبسها رمزاً للتحقير والازدراء والتَجريس ، انظر :- أهل الذمة فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة (١٩٦٧) ص١٤١ .

(٣) انظر الملاحق ، ملحق ٤/٥ .

(٤) الصفدى : الوافى ، جـ١٣ ، ص٢٩٨ .

(٥) الوشَّاء : المُوشى ، ص ١٣٦ ؛ العبيدى : المرجع نفسه ، ص١٦٨ .

(٦) الثعالبى : فقه اللغة وسر أسرار العربية ، تحقيق مُصطفى السقا (وآخرون) القاهرة (١٩٨٣) ص٢٥٣ ؛ بدرى محمد فهد : المجتمع ، فصلة من كتاب حضارة العراق ، جـ٥،ص٨٦ ; Dozy : Dictionnaire , p319

(٧) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان – المطبوع – جـ٨،ق٢، ص٤٣٨ ، وتظهر الغلالة فى إحدى مصورات الواسطى لسيدة فى حالة وضع ، وهى ثوب رقيق ومحلى بخطوط بيضاء طولية متوازية وأكمام قصيرة لا تكاد تصل إلى رسغ اليد ، أنظر الملاحق ، ملحق ٢٠/٥ .

(٨) الوشاء : المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

(٩) حكاية أبو القاسم ، ص٥٣ .

(١٠) السرُوَال : لفظة فارسية أصلها " سُربال " وهى تعنى فوق القامة ، أدوات شير : الألفاظ الفارسية ، ص٨٨ .

الصيادون فى مُختلف المُدن السَاحلية العربية إلى الآن [١] ويكـــون السُــروال فـــى الغـــالب فضفاضا وواسعا فى أعلاه ثم يأخذ فى الضيق حتى يلتصق بالساق قرب نهايته [٢] ، وتـــأتى السَراويل النسائية المَصنوعة من الإبرَيْسَم [٣] فى جُرْجَان كأفخر أنواع السَــراويل [٤] كذلـــك يتحدث الأَزدى عن سَراويل فاخرة كانت تُسمى سَراويل " شَقّ المَرارة " [٥] ، ونظـــرا لعـــدم وجود أزرار تُحكم التصاق السُروال بالخَصر فإنه كان يَلزم السُروال " تَكَّة " [٦] والتَكَّة شريط من القماش يُلف حول السُروال لإحكام التصاقه بالخَصر وقد تفننت النساء فى اقتنـــاء أنـــواع التِكَكْ الفاخرة المصنوعة من نسيج الإبرَيْسَم الفاخر ، وكان من عادتهن تزيينها بكتابة الأشعار عليـــها [٧] .

ويأتى الإِزَارْ وهو رداء من القماش ذى أكمام واسعة ، ويُلف حول الجَسَد ويُلقـــى القســـم العُلوى منه على الرأس والوجه [٨] واستنادا إلى وصف الجلبَاب بأنه ثوب كبير تَلف به المرأة جَسدها بحيث لا يظهر منها إلا الوجه [٩] فلا يُمكن للباحث إلا أن يفترض أن الإزار هو نفسه الجلباب [١٠] وإلا فإنه سيكون من الصعوبة بمكان التمييز بين الجلباب والأزرار فى الصـــور والمُنمنمات الأَثَرية .

ومن أفخر أنواع الأُزُرْ " أُزر المُلْحم [١١] النَيسابورية " [١٢] كذلك " الأُزر السَبنية " وهـــى أُزر سُود تُنسب إلى قرية سَبن بنواحى بغداد وهى ضَرب من الأُزر النسائية المصنوعة مـــن الكتان من أغلظ ما يكُون لتناسب جو الشتاء [١٣] ، ونظرا لطبيعة الأُزر المُحافظة فإن النســـاء

---

[١] قام Dozy بالفعل بترجمة لفظة "سُروال" العربية إلى لفظ "Pantalon" الفرنسية ، Dozy : Op . Cit ,p206

[٢] أنظر نماذج من السراويل فى إحدى منمنمات مخطوط الترياق لجالينوس ، حيث ترتدى الجوارى اللائـــى يحطن بالأميرة عدداً من السَراويل المصنوعة من خامات مختلفة ومُحلاّة بأنواع مُختلفة من الزخارف النباتيـــة والهندسية ، ملحق ٥/٤ .

[٣] الإبرَيْسم : الحرير قبل أن يَخرقه الدود ، فإذا خَرقه قيل له القَز ، الوشّاء : المُوشى : ص١٨٠ .

[٤] الهمذانى : المقامات ، ص٦٥ .

[٥] حكاية أبو القاسم ، ص ٥٣ .

[6] **Dozy : Dictionnaire , p 95** .

[٧] الوشاء : المُوشى ، ص ٢٥٢ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، جـ٤ ، ص٣٢٠ ؛ الباخرزى : دميـــة القصر وعصرة أهل العصر ، تحقيق سامى العانى ، مطبعة المعارف ، بغداد (١٩٧٠) ص٣١٥ .

[8] **Laen: op. cit , p 228** .

[٩] العُبيدى : الملابس العربية ، ص٢٩٨ .

[١٠] اقترب دوزى من وجهة النظر هذه عندما ذكر أن الإمام البُخارى تحدث عن الجلباب كمرادف للإزار انظر :- **Dozy : Op . Cit , p122**

[١١] المُلْحم : ما سداه إبريْسم ولحمته من نسيج آخر ، الوشاء : الموشى ، ص١٣٦ .

[١٢] الوَشاء : المصدر نفسه ، ١٨٤ .

[١٣] ابن العمرانى : الإنباء ، ص١٣٦ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص١٨٦ .

كن يُفضلن أن يَحضُرن بها الصَلَوات الجَامعة فى المساجد ، وحضور الدروس العلميــة فــى المدارس [١] .

ويأتى الرداء وهو ضَربٌ من الثياب يختلف عن الإِزَارْ بأنه مُخيط ويَنسدل إلــى أسـفل القَدمين وله أكمام واسعة وفى الغالب ما يُحلَّى قُرب الكتفين برسُوم وزخارف مُتنوعة [٢] وقد جاء للأَزْدِيِّ وصف طريف لأحد أنواع الأردية ويسمى رداء القَصب العُودى [٣] وكـــان من أغلى أنواع الأردية الفاخرة التى كانت نساء الطبقة العليا يحرصن على اقتناءهـــا يقـول الأزدى :- " رداء القَصب العُودى دقيق الأعلام والطُرُزْ عليه تزايين أحسن والله من تزاييــن الصين ، مَطْوياً أربع طاقات مُرَصع بالزبرجد والياقوت " [٤] ، ومن أشـــهر الأرديـــة التـــى اشتهرت بجودتها بالعراق ، الأردية الطَبَرية المصنُوعة بطَبَرستَان [٥] والأرديـــة الرَشـيدية المصنوعة برشيد بمصر [٦] وكان من المُعتاد أن يُلبس الإزار فوق الرداء [٧] وقـــد اشـتهرت الجوارى بلبس الأَرْدِية المصبوغة بالزعفران والطيب مثل المُلْحـــم الأصفـــر والدَبيقـــى [٨] المُـــعَنبر [٩] .

كذلك كان القِباء ضمن أزياء النساء الرئيسية فى تلك الفترة ، والقِباء عبارة عـــن ثـوب مفتوح من الأمام مثل العَباءة ، ويكون فى الغالب طويلاً يمتد لأكثر من الرُكبتين كما كان لـــه كُمَّان واسعان [١٠] وتأتى الأقبية المصنوعة من الديباج أو الحرير وهـــو زى نســاء الطبقـة

---

[١] يظهر الإزار فى إحدى مُنمنمات الوَاسطى حيث نرى فى إحدى حلقات العلم ثمانية نساء يرتدين جميعا الأُزر المُزركشة ، وهى جميعا مُحلاَّة بأشكال وزخارف نباتية وهندسية متباينة ، انظر ملحق ١٥/٥.

[٢] انظر نماذج للأردية بالمنمنمات المنشورة بالملاحق ، ملاحق ٢/٥ ، ١٢/٥ ، ١٣/٥ .

[٣] القَصَب : ثياب رقاق ناعمة من الكِتَّان ، الوشاء : الموشى ، ص١٣٦ .

[٤] حكاية أبو القاسم ، ص٥٣ .

[٥] الوشاء : المصدر نفسه ، ص ١٨٤ .

[٦] المصدر نفسه ، ص ١٣٦ .

[٧] انظر الملاحق ، ملحق ٩/٥ ، حيث ترتدى النائحات الإزار فوق الرداء فى إحدى منمنمات الواسطى .

[٨] الدَبيقِىّ : قماش ناعم رقيق المَلمس كان يُصنع بدَبيق من أعمال مصـــر ، الوشـــاء : المصـــدر نفســـه ، ص١٣٦ .

[٩] الوشاء : المصدر نفسه ، ص ١٧٩ .

[١٠] يظهر القباء بشكل واضح فى إحدى المُنمنمات حيث ترتديه الأميرة علـــى غُـــلاف مَخطـوط الترياق لجالينوس المؤرخ بسنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م أنظر ملحق٤/٥ .

العليا [١] ويرتبط بالأردية والأقبية لبس المنطقة أو الزنار [٢] وهى عبارة عن شريط من القماش يربط على الوسط ويترك لينسدل إلى الأسفل [٣] وزنانير النساء تكون أصغر وأرق فى الصنعة من زنانير الرجال [٤] .

ومن مكملات الزى النسائى والتى كانت تدل على الثراء وسعة العيش ارتداء النساء للفرجية ، وهى نوع من أنواع العباءات الفاخرة كانت ترتدى فوق الملابس [5] وقد خلع الخليفة القائم على خديجة خاتون عشية دخوله بها الفرجية التى كانت عليه [٦] كما خلع طغرلبك على ابنة الخليفة القائم فرجية من نسيج الذهب المكلل بالحب (اللؤلؤ) [٧] مما يدل على أن الفرجية كانت تعتبر أيضا زيا مشتركا بين الرجال والنساء .

وتأتى الجوكانية كإحدى مكملات الزى الغالية الثمن والقيمة ، وقد جاء لابن الجوزى أن امرأة أرادت أن تكافئ البنائين الذين كانوا يعملون ببناء أحد أسوار بغداد فنزعت جوكانية من الديباج كانت عليها وأعطتها لهم [٨] ولم تشر المصادر التى بين أيدينا إلى ماهية الجوكانية كذلك لا ذكر لها فى الدراسات التى اهتمت بدراسة الملابس العربية إلى هذا النوع من الملابس وربما كانت الجوكانية كانت نوعا من العباءات أو الأقبية مثلها مثل الفرجية .

أما عن ملابس القدم فتأتى الخفاف فى مقدمة ما يلبس فى القدم للنساء ، والخف نوع من أنواع الأحذية ذات كعب يعلو عن الأرض وتتميز ببروز من الأمام ، كما كان الخف عادة ذى رقبة مرتفعة بحيث كانت تغطى الجزء السفلى الظاهر من السروال [٩] ويروى ابن الجوزى " أن امرأة قد ماتت فاشترى لها زوجها كفنا قصير ، فقالت له الغاسلة الكفن قصير ، فقال لها ألبسيها خفها " [١٠] وهو ما يدل على طول رقبة الخف ، ويظهر ذلك النوع من الخفاف على

---

(١) يذكر الصفدى فى زفاف خديجة خاتون أنه سار إلى جوارها ثمانون جارية عليهن أقبية الديباج " الوافى ، جـ١٣ ، ص ٢٩٨ .

(٢) الزنار : كلمة يونانية تعنى المنطقة أو الحزام ، ابن القيم الجوزية : أحكام أهل الذمة ، تحقيق صبحى الصالح ، دار العلم للملايين ، بيروت (١٩٦١) جـ١،ص٤٤ .

(٣) أنظر أمثلة للزنار وطرق ربطه المتعددة بالملاحق ، ملحق٤/٥ .

(٤) الوشاء : الموشى ، ص ١٨٦ .

(5) **Dozy : Dictionnaire , p309** .

(٦) الصفدى : الوافى ، جـ١٣ ، ص٢٩٨ .

(٧) الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق ، ص٢٤ .

(٨) المنتظم ، جـ٨ ،ص٤١ .

(٩) العبيدى : الملابس العربية ، ص٣٣١ .

(١٠) أخبار الحمقى والمغفلين ، ص١٦٤ .

إحدى منمنمات مخطوط الترياق لجالينوس ترتديه إحدى الفلاحات العاملات فى الحقـــل [١] ، ويتحدث الوشاء عن نوعين فاخرين من الخفاف النسائية وهما الخفـــاف الرنانيـــة والخفـــاف الكنباتية المشعرة [٢] .

وتأتى النعال وهى إحدى أنواع الأحذية النسائية أيضا ولم تكن تختلف عن الخفـــــاف إلا بعدم وجود الرقبة الطويلة التى كانت تتميز بها الخفاف ، وقد ابتكرت نساء بغداد نوعا مـــن النعال التى كانت تصر بصوت عال عند المشى مع احتكاكها بالأرض ، وكانت تلك النعـــال تسمى بالنعال الصرارة ، وكانت النسوة اللائى يرتدين مثل هذه النعال يدعون باسم الصرارات ، وكان الأساكفة يصنعون هذه النعال بحشوها بالورق واللبود التى من شأنها جعل النعل يصر عند المشى ويصدر أصواتا مزعجة عند سير المرأة بهدف لفت النظر إليها [٣] وقـــد منعـــت السلطة هذا النوع من أنواع النعال وكان المحتسب يعاقب الاساكفة الذين يثبت أنهم يصنعونـــه والنساء اللائى يلبسنه أيضا ، يقول الشيزرى فى باب الحسبة على الأساكفة " ويتأكد المحتسب من أنهم (أى الاساكفة) لا يعملون الورق اللبد ولا أشباهه فى أخفاف النسوان كى تصر عنـــد المشى كما تفعل نساء بغداد ، فإنه قبيح وشهرة لا تليق بالنسوان " [٤] .

أما بالنسبة لملابس النساء من أهل الذمة فقد ألزمت الشروط العمرية أهل الذمـــة بلبـــاس خاص يميزهم عن غيرهم من المسلمين فى الأسواق والشوارع ، وكان زى نساء أهل الذمـــة وفقا لهذه الشروط يتكون من الأزر العسلية [٥] كما يجب أن تلبس المرأة خفين أحدهما أســـود والآخر أحمر ، وتعلق فى رقبتها درهم مختوم لتعرف بين المسلمات أنها ذمية [٦] ، ونلاحـــظ من الناحية العملية أن الشروط العمرية لم تكن تطبق إلا نادرا ، إذ أنه لم يحدث طوال العصر

---

[١] انظر ملحق ١٤/٥ ، كذلك يظهر فى إحـــدى منمنمـــات كتـــاب الأغـــانى للأصفـــهانى المـــؤرخ بســـنة ٦١٤هـــ/١٢١٧م ، حيث ترتديه الجوارى الراقصات انظر ملحق ١٣/٥ .

[٢] الوشاء : الموشى ، ص ١٣٦ .

[٣] الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٧٣ ؛ سعدون الساموك : الأزياء العربية عبر التاريخ ، *المؤرخ العربـــى* ، عدد ٢٥ ، بغداد (١٩٨٤) ص١٤٧ ؛ وجيدة الاطرقجى : المرأة ، فصلة من كتاب حضارة العراق ، جـــ٥ ص١٢٨ .

[٤] نهاية الرتبة ، ص٧٣ .

[٥] وقد جاء لأحد الشعراء :-

والعسليات التى فرقت بين ... ذوى الرشـــدة والغـــى

وما عـــلى العـــاقل أن ... يكثروا فهو أقرب للفى

أبو طالب المكى : قوت القلوب ، جـــ١، ص٤٣ ؛ أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، جـــ١،ص٤٣ .

[٦] الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص١٠٦ .

البويهى أن طبقت تلك الشروط على أهل الذمة ، وذلك نتيجة اعتماد بنى بويه المتزايد على أهل الذمة نتيجة لعدم ثقتهم فى أهل السنة ، أما فى العصر السلجوقى فقد تزايدت مطالب الحنابلة بتطبيق الشروط العمرية على أهل الذمة ، وقد وقفت خديجة خاتون بصلابة أمام رغبة الحنابلة فى تطبيق هذه الشروط على أهل الذمة مرتين كما مر بنا [1] ، لذا لم يستطع الخليفة القائم تطبيق هذه الشروط طوال مدة خلافته بسبب وقوف زوجته السلجوقية أمام رغبته فى تطبيقها .

وقد بدأ حفيده الخليفة المقتدى خلافته بسلسلة من الخطوات الإصلاحية [2] تحت ضغط الحنابلة أيضا ، وكان التقارب الذى حدث بين المقتدى وبين الحنابلة منذ أن بدأ خطواته الإصلاحية عام ٤٦٩هـ/١٠٧٦م قد شجعت المقتدى أن يمضى فى الشوط إلى آخره فأصدر عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م مرسومه بتطبيق الشروط العمرية على أهل الذمة [3] وعلى أى حال فسرعان ما رفعت هذه القيود عن أهل الذمة فى عهد ولده الخليفة المستظهر عام ٤٩٨هـ/١١٠٤م [4] ، وطيلة العصر السلجوقى لم يحدث أن طبقت تلك الشروط مرة أخرى إلا فى عصر الخليفة الناصر الذى أمر بإعادة فرضها على أهل الذمة عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م [5] غير أننا لا نعرف بالتحديد متى أزيلت عنهم لكن من المرجح أن تكون قد استمرت حتى نهاية عصر الخليفة الناصر أى إلى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م .

ومما سبق نستنتج أن أهل الذمة نعموا رجالا ونساء بالمساواة مع المسلمين بالحرية فى ارتداء ما يحلو لهم من أزياء باستثناء الفترة الواقعة بين عامى ٤٨٤هـ/١٠٩٨م إلى ٤٩٨هـ/١١٠٤م ، والفترة من ٥٧٨هـ/١١٨٢هـ إلى عام ٦٢٢هـ/١٢٢٥م كما يرجح الباحث .

---

(1) انظر ما سبق ، ص ٥٢ .

(2) انظر ما سبق ، ص ١٣٠ .

(3) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٩، ص٥٥ ، ويتبين من المقارنة بين تواريخ ٤٦٩هـ/١٠٧٦م وهو العام الذى بدأت فيه خطوات المقتدى الإصلاحية ، وبين تاريخ ٤٨٤هـ/١٠٩١م أن المقتدى لم يكن يرغب فى تطبيق تلك الشروط على أهل الذمة ، وإنما اضطر إلى ذلك تحت تأثير ضغط الحنابلة والنتائج التى أثمرتها إصلاحاته من إعادة الهيبة للخلافة .

(4) وقد استغرب ابن الجوزى من إقدام المستظهر على تلك الخطوة وعلق على ذلك بأنه لم يعرف ما السبب الذى دفع المستظهر إلى إلغاء فرض الشروط العمرية على أهل الذمة ، المنتظم ، جـ٩، ص١٤٣ .

(5) ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق ، ص٧٣ ، ويقول ابن فضلان فى وثيقته " ...... وآخر من شدد عليهم (أى أهل الذمة) المقتدى بالله ، الحوادث الجامعة ، ص٦٨ .

إلى جانب ذلك انتشرت العديد من العادات الاجتماعية للنساء والمرتبطة بالزى وعلى رأسها زى الحداد وكان لون ثياب الحداد والعزاء للنساء هو اللون الأبيض [1] حيث أجبرت القيود الاجتماعية المرأة التى تفقد زوجها [2] أو الذمية التى يهجرها زوجها على ارتداءه [3] ولا شك أن اتخاذ النساء للون الأبيض كلون من ألوان الحداد على عكس الشائع من اتخاذ اللون الأسود لذلك الغرض هو اتخاذ الدولة العباسية نفسها للون الأسود كشعار لها مما أكسب هذا اللون نوعا من الوقار والإجلال ، مما أدى على الصعيد الاجتماعى إلى إبعاد ذلك اللون عن كافة مظاهر الحزن والحداد كما هو متعارف عليه [4] .

كذلك كان لتنظيمات الصوفيات زى خاص يرتدينه وهو ما يسمى بالخرقة [5] وهى ضرب من أنواع الثياب الخشنة المصنوعة إما من الصوف أو الكتان [6] ، وكانت المرأة الصوفية تتلقى تلك الخرقة عن شيخها أو شيختها بعد أن تسلك فى التصوف درجة معينة ، ولا تقوم المرأة الصوفية بخلع هذه الخرقة مدى الحياة [7].

أما بالنسبة لزى الراهبات فى الأديرة فلا تكاد تتوافر تفصيلات كافية عن هذا الزى والإشارات المصدرية فى هذا الصدد جد نادرة ، على أن أبا الفرج الأصفهانى قد أورد بعضا من أبيات الشعر [8] فى وصف راهبات دير العثلث الذى كان يقع فى الجانب الشرقى من بغداد ،.وما يفهم من تلك الأبيات أن الراهبات كن يرتدين نوعا من الثياب تدعى بالمسوح ، والمسوح توصف عادة بأنها ضرب من الثياب المصنوعة من الصوف أو الشعر [9] ، غير أنه يغلب على الظن أن هذه المسوح أطلقت على هذه الملابس والأقمشة التى كان يلبسها رجال

---

(1) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ١٠،ص١٢ ؛ ابن الساعى : الجامع المختصر ، ص١١١ .

(2) بدرى محمد فهد : المجتمع ، جـ٥،ص٨٩ ؛ وليم الخازن : الحضارة العباسية ، دار المشرق ، بيروت (١٩٩٢) ص٣٤ .

(3) الوشاء : الموشى ، ص ١٨٥ .

(4) ربما يكون هذا تطبيقا للحديث الشريف المنسوب للرسول ﷺ " إن من أحب ثيابكم إلى الله البياض فصلوا فيها وكفنوا فيها موتاكم " ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ٢،ص٢١٢ .

(5) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ، ص٥٠٥ .

(6) المصدر نفسه ، ص٥٠٦ .

(7) وعن شعائر ارتداء النساء الصوفيات للخرقة ، انظر ص ٢٥٢ .

(8) يقول الأصفهانى :-

وظباء يتلون سفرا من الإنجيل باكرات سحرة قربانا
لابسات من المسوح ثيابا جعل الله تحتها أغصانا

الديارات ، جمعه ونشره جليل العطية ، لندن (١٩٩١) ، ص٢٢ .

(9) طيبة صالح الشذر : ألفاظ الحضارة العباسية ، ص٦٣ .

الدين من أهل الذمة سواء كانت من هذا النسيج أو غيره ولا ترد أى تفصيلات أخرى عن شكل هذه المسوح ولا كيف كانت تبدو فى المصادر ذات الصلة .

أما عن مكملات الزى ويأتى على رأسها الحلى فقد امتازت حلى المرأة فى العصر موضع الدراسة بالتنوع سواء من ناحية الشكل أو النوع ، ويأتى فى مقدمة ما حرصت النساء على ارتداؤه من الحلى " حلق الذهب " أو القرط ، إذ كان من المعتاد أن تثقب أذن الصبية بعد إتمامها لعامها الأول [١] ، وقد أثار حرص النساء على ارتداء القرط سخط رجال الدين فقد أخذ الفقيه أبو حامد الغزالى نزيل بغداد عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م على نساء العراق عادة التزين بحلق الذهب وحرمه ودعا إلى القصاص من المرأة التى تخرق أذن الصبية ، وكان فى وعظه للنساء يذكر لهن أن " فى المخانق (أى العقود والسلاسل) والأساور كفاية عنه " [٢] .

ويتضح فى ضوء دراسة مجموعة الأقراط التى وصلتنا من ذلك العصر والتى تمتاز بتنوع الأشكال ومدى ما بلغته صناعتها من الدقة والمهارة فى الصنعة ، فكان منها أشكال تنتهى بدلاية تتدلى منها ثلاث كرات مجوفة من الذهب ، وتزين هذه الكرات مجموعة متنوعة من الزخارف النباتية والحيوانية تعطى للناظر شكلا عنقوديا بديعا [٣] كما شاع طراز آخر من الأقراط العباسية التى شاعت بين النساء فيما بين القرنين الرابع والسادس الهجريين / العاشر والثانى عشر الميلاديين وهى أقراط تنتهى بدلاية بها قطعة من حجر اللازورد الكريم أو حبة كبيرة من اللؤلؤ [٤] ، كما شاع ابتداء من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى شيوع أنماط من الأقراط الهلالية الشكل وهى أقراط تبدا بدلاية كبيرة وتنتهى بقطعة من الذهب على شكل هلال كبير [٥] .

---

(١) ابن الجوزى : كتاب النساء وما يتعلق بهن ، المعروف بأحكام النساء ، مطبعة الحلبى ، القاهرة (١٩٩٤) ص١١١ .

(٢) إحياء علوم الدين ، الدار المصرية اللبنانية ، للطباعة والنشر ، بيروت (د.ت) جـ٢،ص٣٦٩ .

(٣) زكية عمر العلى : حلى إسلامية ، ص٢٨٢ ، وانظر أمثلة لهذا القرط بالملاحق ، ملحق ١٣/٤ .

(٤) انظر الملاحق ، ملحق ١٣/٤ ، وفيما بعد أدخلت نساء الإيلخانيين نظام القرط المعلق فى الأنف " الخزامة " الذى شاع فى العالم الإسلامى فيما بعد ، زكية العلى : المرجع نفسه ، ص٢٨٥ .

(٥) انظر أمثلة لتلك الأقراط بالملاحق ، ملحق ١٣/٤ ، ويرى بعض الباحثين أن شيوع الشكل الهلالى فى الحلى فى أواخر عصر الدولة العباسية يعود إلى أغراض تتعلق بإبعاد العين الشريرة ، انظر :-

Ackerman : Jewelry in The Islamic Period , New York (1984) Vol VI , p 2664 .

، بينما يعتقد الباحث أن شيوع الشكل الهلالى آنذاك فى الحلى وغيرها من الأشكال الفنية والزخرفية الإسلامية على نطاق واسع منذ القرن الخامس الهجرى كان رد فعل من جانب الفنان المسلم على ظهور الصليب كرمز للنصرانية فى الحروب الصليبية ، فقد وجد الفنان المسلم فى الهلال رمز فنى جيد للإسلام فبدأ الفنانون المسلمون فى استخدامه على نطاق واسع فى كل أشكال الفنون والعمارة الإسلامية ، وهو ما تكرس بمضى الزمن فأصبح الهلال بالفعل يرمز إلى الإسلام .

وتأتى المخانق أو السلاسل التى كانت المرأة تعلقها فى رقبتها كقطعة من أهم قطع الحلى التى كانت تهتم بها المرأة [١] ، وقد اتخذت المخانق أشكالا فنية متعددة منها الشكل الكمثرى وهو الشكل الغالب ، وقد شاعت فيه الزخارف الممتدة من الداخل إلى الخارج [٢] بينما اتخذت بعض المخانق الأخرى الشكل الكروى [٣] .

إلى جانب ذلك كانت العقود والتى كانت تتألف من حبات اللؤلؤ ، من أهم قطع الحلى التى كانت المرأة تحرص على اقتنائها ، وقد أهدى طغرلبك لابنة الخليفة القائم عندما خطبها عقدا من اللؤلؤ به ثلاثين حبة [٤] ، ولم تكن عقود اللؤلؤ من الحلى التى يمكن أن تمتلكها سوى نساء الطبقة العليا ، وكانت النساء من الطبقات الأدنى يلبسن نوعا مقلدا من العقود كان يطلق عليه اسم السبحة ، وفى الغالب كانت السبحة تصنع من مادة العنبر الشديدة الشبه باللؤلؤ [٥]

وتأتى الخواتم كإحدى قطع الحلى الأساسية لدى المرأة ، وكان أبرز تلك الخواتم الذهبية ذات الفص من العقيق الأحمر ، أو الفيروز الأخضر ، أو الفضة المحرقة ، أو الياقوت المثمن [٦] وقد شاعت عادة كتابة الأشعار على خواتم النساء حتى أن ع ضد الدولة قد استخدم ظاهرة الكتابة على خواتم النساء فى الدعاية السياسية له [٧] .

كما كان الخلخال أحد قطع الزينة الأساسية وهو زينة القدم ، وغالبا ما كان يصنع من الفضة نظرا لثقل وزنه ، لكن نساء الطبقة العليا كن يفضلنه من الذهب [٨] وكان من الممكن أن يصل ثمن زوج الخلخال الواحد إلى سبعين دينارا إذا كان مصنوعا من الفضة [٩] وهو

---

(١) ابن الجوزى : أحكام النساء ، ص١١ .

(٢) انظر الملاحق ، ملحق ١٤/٤ .

(٣) الملاحق ، ملحق ١٤/٤ .

(٤) الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق ،ص٢٠ .

(٥) الأزدى : حكاية أبو القاسم ، ص٥٣ .

(٦) الوشاء : الموشى ، ص١٨١ .

(٧) وكان مما أمر عضد الدولة بنقشه على خواتم النساء :-

مرقومة الجنبات بالبدع التى   لم يهدها قط الربيع لروضة
كتمت روائحها فلما عذبت   بالنار فاح سميها فأقرت
وكأنما الملك الأجل المنصور   عضد الدولة تاج الملة
أذكى مجامرها بنار ذكائه   وغدا الدخان على علو الهمة

الثعالبى : يتيمة الدهر ، جـ٢،ص٣٨٦ .

(٨) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، جـ٤،ص٥٩ .

(٩) ابن الجوزى : أخبار القصاص والمذكرين ، تحقيق مارلين سوارتز ، دار المشرق ، بيروت (د.ت) ص١٢٥ .

مبلغ باهظ ، ولعل هذا ما حدا بنساء الطبقات الدنيا إلى اتخاذ أنواع أبسط من الخلاخل المصنوعة من المعادن الرخيصة وتخلو تماما من الزخارف المألوفة فى مثل هذا النوع من الحلى لتناسب ذات أيديهن ، ومن حسن الحظ فقد وصلتنا بعض النماذج من هذه الخلاخل [١] .

ومن ضمن مكملات الزى أيضا تأتى أدوات الزينة ، وكانت أدوات الزينة وضروب التزين التى استخدمت فى ذلك العصر شاهدة على تقدم فن التجميل فى العراق آنذاك ، ليس أدل على ذلك من وصف ابن بطلان البغدادى لحيل النخاسين عند بيع الجوارى ، يقول ابن بطلان : " وكم صفروا البياض الحادث عن القروح فى العين وجعلوا العين الزرقاء كحلاء وكم من مرة حمروا الخدود المصفرة وسمروا الوجوه المقعقعة وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد وجعدوا الشعور السبطة وأذهبوا آثار الجدرى والوشم والنمش " [٢] .

ومن الملاحظ أن وجود الخال كان يعد أحد أبرز مظاهر الجمال عند المرأة [٣] وكانت الكثيرات من الأمهات يلجأن إلى الماشطات ليقمن بوضع الخال على خد الصبية صناعيا بطريقة الوشم ، ويتحدث ابن الجوزى عن أن هذا العمل كان يقتضى غرز إبرة فى بشرة الخد أسفل الذقن ثم يحشى موضع الإبرة بالكحل الأسود أو بمادة النيل الزرقاء فيسود الخال أو يزرق بحسب الرغبة [٤] .

وكان الرامك [٥] مادة الخضاب الرئيسية للشعر والحواجب وقد تفننت النساء فى اختيار لون الرامك المناسب تبعا للون البشرة فإذا كانت المرأة بيضاء استخدمت الرامك الأحمر وإذا كانت سمراء داكنة استخدمت الرامك الذهبى ، وإذا كانت صفراء استخدمت الرامك الأسود [٦] .

كذلك استخدمت المرأة الحناء أيضا لخضاب الأيدى والأقدام [٧] وقد بلغ من أهمية نبات الحناء واستخدامه فى عملية التجميل أنه قد شاع القول بين النخاسين " ربع دينار حناء يزيد من ثمن الجارية مائة درهم " [٨] .

---

[١] انظر نماذج لهذه الخلاخل بالملاحق ، ملحق ١٦/٤ .

[٢] رسالة تقليب العبيد ، ص٣٥٥ .

[٣] الأزدى : حكاية أبو القاسم ، ص٥٢ .

[٤] ابن الجوزى : أحكام النساء ، ص١١ .

[٥] الرامك : مادة للخضاب كالحناء إلا أنها مصنوعة ، ويذكر النويرى أن الرامك كان يتم صنعه من نبات العفص (أحد النباتات الخضراء ، ربما يكون الجرجير) المنخول ثم غليه بالماء وتركه عدة أيام ، نهاية الأرب ، جـ١٢، ص٧٠ .

[٦] ابن بطلان : رسالة تقليب العبيد ، ص ٣٨٤ .

[٧] ابن الجوزى : المصدر نفسه ، ص١٦١ .

[٨] ابن بطلان : المصدر نفسه ، ص٥٣٦ .

وكان وضع الشعر المستعار ظاهرة شائعة لا سيما إذا كانت المرأة زعـــواء [1] (أى ذات شعر مجعد أو أبيض) كذلك استخدمت المرأة الوصل وهو أن تصل شعرها من جنسه ولونـــه إذا كان قصيرا ليبدو طويلا ، وقد عرفت المرأة التى تفعل ذلك بالواصلة [2] .

كما استخدمت المرأة كذلك الكحل لخط العينين [3] وإلى جانب ذلك شاع اســـتخدام أدويـــة وتراكيب لتفتيح لون البشرة ، منها ماء الكراوية [4] والزعفران المخلوط بالدقيق [5] ويشير ابن الجوزى إلى مادة كانت تسمى الكلكون ومعناها لون الورد ، وكانت تستخدم لتحمير الخدود [6] كذلك تفننت الماشطات فى صناعة مواد التجميل ، ويشير ابن الجوزى أيضا إلى تركيبة كانت تصنعها الماشطات وتتميز بارتفاع ثمنها وكانت تسمى " إسفيداج [7] العرائس " كانت ضمن ما تستخدمه الماشطات فى تجميل الفتيات المقبلات على الزواج [8] .

وتميزت عطور النساء بالتنوع وكان أهمها عطر يسمى ماء الخلوق وهو خليط من نسـب من ماء الورد والند والكافور[9] وقد بلغ من ارتفاع ثمن هذا العطر أن باعـة الطيـب كـانوا يغشونه بإضافة نسب من الزعفران إليه [10] وكان الأثر السيئ للزعفران بالرغم مـن طيـب رائحته أنه كان يترك أثرا بالملابس [11] إضافة إلى ذلك انتشرت أنواع أخرى مـن العطـور النسائية مثل اللخالخ والصندل والساهرية والأدقال والبرمكية والبنفسج [12] وقد تميزت هـــذه

---

(1) أبو يعلى الفراء : طبقات الحنابلة ، جـ١،ص١٣٧ .

(2) المصدر نفسه ، والجزء الصفحة .

(3) ابن الجوزى : أحكام النساء ، ص١٦١ ؛ وجيدة الاطرقجى : المرأة ، فصلة من كتاب حضارة العـراق ، جـ٥ ، ص١٤١ .

(4) ابن بطلان : رسالة تقليب العبيد ، ص٣٨٨ .

(5) المصدر نفسه ، ص ٣٧٩ .

(6) ابن الجوزى : المصدر نفسه ، ص ١٦١ .

(7) الاسفيداج : قطع من اللحم تقطع صغارا وتطبخ حتى تنزع رغوته ، ويلقـى عليـها الحمـص والبصـل المسحوق حتى تستوعبه أجزاؤه ، ويحمص بالليمون والخل ثم يحفظ وهو يستخدم أساسا للتداوى مـن علـل البطن ، النويرى : نهاية الأرب : جـ١٢ ، ص ١٤٥ .

(8) ابن الجوزى : المصدر نفسه ،ص١٦١ .

(9) الوشاء : الموشى ، ص١٨٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ ١٢،ص١٢٩ .

(10) الشيزرى : نهاية الرتبة ، ص٥٣ .

(11) النويرى : المصدر نفسه ، جـ١٢،ص ١٢٩ .

(12) النويرى : المصدر نفسه ، نفس الجزء ، نفس الصفحة .

العطور بأثمانها الغالية نظرا لخلوها من مادة الزعفران ، وقد شاع بين النساء من الطبقات الفقيرة التعطر بعطر يدعى الغالية وكان يتميز برخص ثمنه وكانت تقبل عليه الإماء والجوارى [١] .

ومما سبق نخلص إلى أنه قد عكست أيضا دراسة ملابس النساء التى امتازت بالكثرة والتنوع والتفاوت فى خاماتها وكذلك الحلى التى امتازت أيضا بالتنوع حسب الوضع الاقتصادى مدى حرص المرأة على المحافظة على مظهرها والحرية الكبيرة التى نالتها فى هذا الصدد وتقدم ضروب التزيين فى العراق آنذاك ، كذلك فإن انتشار ظاهرة إخفاء المرأة لوجهها تحت البرقع بالرغم من كون الإسلام قد أجاز للمرأة إظهار الوجه والكفين كان لأسباب اجتماعية أكثر منها دينية كما تظهر فى جوهرها ، فقد عبر البرقع عن وضع اجتماعى طبقى فكان وسيلة التمييز فى الأسواق والشوارع بين الحرائر والجوارى ، حتى أن المحتسب كان يعاقب الجارية التى ترتدى البرقع ثم يثبت له أنها تتشبه بالحرائر فى ارتدائه ، ومن ثم فقد تمسكت الحرائر بارتداء البرقع كنوع من أنواع التمييز الإيجابى للطبقة الاجتماعية .

[١] الوشاء : الموشى ، ص ١٨٣ .

(٥) نَظرة المُجتمع إلى المرأة

على الرغم من تلك الحُرية الواسعة التى نالتها المرأة وذلك الدور الفعَّال الذى لعبته فى الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية كما سنرى فيما بعد إلا أن نظرة المُجتمع إلى المرأة لم تكن نظرة مُنصفة بأى حال من الأحوال ، إذ شهد هذا العصر تدهوراً كبيراً فى وضع ومكانة المرأة فدأب العُلماء والمُفكرون فى ذلك العصر على مُهاجمتها باستمرار واتهامها بالتسبب فى العديد من الظواهر الاجتماعية السَلبية والتى سَادت فى المُجتمع آنذاك .

وللبحث عن أسباب تلك النظرة المُتدنية تجاه المرأة فإننا نلحظ بشدة تأثر العراق بالعديد من التيارات الحضارية المشرقية التى أثرت بلا ريب على الأوضاع الحضارية فى العراق بحكم القرب فى الموقع الجغرافى وأبرز تلك المؤثرات الحضارية كانت تلك التى قدمت من الهند وفارس ، وهما حضارتان عريقتان ازدهرتا قبل الإسلام وتأثرت بهما الحضارة الإسلامية بصفة عامة وفى العراق بصفة خاصة حيث انتشرت العديد من مظاهر هذه الحضارات على كافة الأصعدة السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية .

ومن الملاحظ أن وضع المرأة فى ظل كل من الحضارتين الهندية والفارسية كان يدعو للرثاء حقاً ففى فارس كانت الديانة الزَرَادشْتية [١] تعامل المرأة بنوع من الدُونية الشديدة إذ اعتبرت الزرادشتية إنجاب الفتيات نقمة فمن ضمن نصوص الإفيستا وهو الكتاب المُقدَّس الذى جاء به زَرَادَشْت نسُوق النص التالى :- " إنَّ الرجَال لا يَدعُون الله أن يَرزُقهم بناتاً وكذلك الملائكة لا تَحسبهُن من النعم التى أُنعم بها على بنى الإنسَان " [٢] .

كذلك كانت المرأة كائن مَسلوب الإرادة دائم الخضوع لسيطرة الرجل على نحو أشبه بأوضاع العبيد فلم يكن ينبغى للمرأة أن تُخالف زوجها أبداً فيما يأمرُها به مهما كانت هذه الأوامر ، بل كان عليها أن تُقسم عند الزواج القَسَم التالى " أُقسم أننى لن أتوقف عن طاعة زوجى أبدا مَدى حياتى " ، وكانت المرأة أشبه بالمتاع المملوك ومن ضمن نصوص الإفيستا المنسوبة لزرادشت قوله : - " المرأة حقل وكل ما يمكن أن ينمو فيه يعتبر ملكا لصاحبه حتى

---

(١) الزَرادشتية نسبة إلى مؤسسها زَرادشت الذى ربما يكون قد عاش فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، والديانة الزرادشتية ترُد خَلق العالم والصراع فيه إلى إلهين اثنين هما أهُورَا مازدا إله النور ويرمز للخير وأهرمن إله الظلمة ويرمز للشر ، والعالم فى صراع دائر مستمر بينهما ودائما ينتصر أهرمن فى تلك الجولات من الصراع وفى نهاية العالم يأتى أهورا مازدا أخيراً على رأس اتباعه لينتصر فى النهاية ويقيم مملكة الخير الأبدية ، الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ١ ، ص ١٦٣ .

(٢) عباس عبد الهادى : المرأة فى حضارات الشعوب ، دمشق (١٩٩١) جـ١، ص٢٧٩ .